رواء
مجلة فكرية دورية

• أوهامٌ حَول النَّصر والهزيمة
• مقدمات معرفية في التدافع الأممي والحضاري ودور اللامركزية فيه
• الكرباج الوطني والأستاذ الأجنبي!
• التربية الجنسية في زمن يزيَّن فيه الشذوذ

الصهيونية.. البناء الذاتي وحبل «الاستعمار»

24
العدد الرابع والعشرون
جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ - كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٣م

هذه المجلة

(رَواء) مجلة فكرية تُعنى بالإنتاج العلمي والدعوي والتربوي والاجتماعي، وتسعى أن تكون منارة في أرض الشام المباركة، تُشع بالعلم والمعرفة من خلال المجالات الآتية:

- الأصالة والانطلاق من ثوابت الدين والأمة، وتعزيزها في النفوس.
- بث القيم الحضارية وروح النهضة في المجتمع.
- تعزيز جانب الائتلاف وجمع الكلمة بين صفوف الأمة.
- إثراء الساحة بمقالات متميزة تلامس الواقع، في قضايا المنهج والتجديد والإصلاح.

ترحب مجلة رَواء بمقالاتكم العلمية والفكرية
ضمن المحاور الأساسية للمجلة

تأصيل	حضارة وفكر	دعوة	نظرات نقدية	قضايا معاصرة	تزكية	قراءات
مواد تتناول تأصيل المنهج، وتقعيده ووضع ضوابطه وأسسه بصورة بنائية	مواد تتناول قضايا حضارية وفكرية	مواد تتناول فقه وأصول الدعوة، والأساليب والوسائل والتجارب الدعوية	لتصحيح المفاهيم والتصورات	مواد تتناول السياسة الشرعية ومآلات الأمور، وتطبيقات المصالح والمفاسد على القضايا المستجدة	في التربية والتزكية والأخلاق	قراءات في الكتب والرسائل العلمية ونقدها وإظهار محاسنها

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

سياسات النشر في المجلة

١. تنشر المجلة المقالات التي تثري محاورها الأساسية.
٢. تلتزم المجلة سياسة التحرير الهادئة، وتجنب النقد الجارح وما يثير النزاعات والفتن.
٣. لا تنشر المجلة ما يجعلها طرفاً في صراعات دولية أو إقليمية أو محلية.
٤. يُحكَّم المقالات الواردة للمجلة متخصصون في موضوعاتها.
٥. أن يكون البحث أصيلاً ومخصصاً للمجلة، ولم يُنشر في أيّ وسيلة نشر إلكترونية أو ورقية، ولم يقدَّم إلى أيّ جهة أخرى للنشر.
٦. تنشر المقالات بالأسماء الصحيحة والصريحة لأصحابها.
٧. تلتزم المجلة بإخبار الكاتب بقرارها من النشر أو عدمه خلال شهر من استلام المقال.

هيئة الشام الإسلامية

رَواء

مجلة رَواء
دورية فكرية تصدر كل شهرين

أسرة التحرير

د. عماد الدين خيتي
رئيس التحرير

أ. ياسر المقداد
مدير التحرير

أ. محمود درمش
سكرتير التحرير

أ. جهاد خيتي

أ. عبد الملك الصالح

التصميم والإخراج الفني
موشنات
Creative Agency
motionat.com

تكتب جميع المراسلات باسم رئيس التحرير، وترسل إلى:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com
www.islamicsham.org

١
أوهامٌ حَول النَّصر والهزيمة

٢
مقدمات معرفية في التدافع الأممي والحضاري ودور اللامركزية فيه

٣
الكرباج الوطني والأستاذ الأجنبي!

٤
تشويه الدولة الأموية، ومرافعة الباحث الأمريكي ستيفن عنها

٥
التربية الجنسية في زمن يزيَّن فيه الشذوذ

٦
الصهيونية.. البناء الذاتي وحبل «الاستعمار»

٧
ولاية الأب في تزويج ابنته: بين النسوية والأحكام الشرعية

٨
علم المعاني.. وأهميته لتفسير القرآن

٩
أثر أحداث غزة على المشروع الإسلاميّ

١٠
قراءة في كتاب: «الصهيونية والحضارة الغربية» للمسيري

١١
خُذِ العَفْو

كلمة التحرير

أَوهامٌ حَول النَّصر والهزيمة

الفهرس

خير أمَّةٍ:

يتساءل بعض الغيورين: ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟ ألسنا على الحق؟ فلماذا طال بنا هذا الضعف والهوان؟ وأين يكمن الخلل؟ وهل من شيء نفعله فرادى في أوقات اشتداد المحن والنوازل، وفي زمن تخاذل الدول، وظروف التضييق على العمل الجماعي أو تعذره في بعض الأحيان؟ فإن في عموم العالم الإسلامي رغبة عارمة في نصرة قضايا المسلمين، وطاقات كثيرة معطلة لا تجد للنصرة المباشرة سبيلاً!

بدايةً لا بدَّ من التأكيد على أن الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وفي الحديث عن معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه: أنه سمعَ النبي ﷺ يقولُ في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، قال: (إنكم تُتمُّونَ سَبعينَ أمَّةً، أنتُم خَيرُها وأكْرمُها على اللهِ)[١].

لكنْ هذه الخيرية ليست دائمة مطلقة على كل حال، بل هي مرتبطةٌ بمهام عظيمةٍ تقوم بها بين الأمم، وصفاتٍ ينبغي أن تتَّصف بها[٢]، كما بيَّنَتْها النصوص الشرعية، وأهمها:

١. الإصلاح في الأرض، وحماية الحياة والناس من الشرِّ والفساد، والتمكُّن من أسباب القوة التي بها يُؤمر بالمعروف ويُنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

٢. العبودية لله تعالى في جميع مجالات الحياة وتحقيق الاستخلاف في الأرض بإقامة دينه وشرعه ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٠١).

(٢) مبدأ الخيرية في الإسلام مرتبط بالصفات التي يلتزم بها المسلمون، وهذا مختلف عما يعتقده اليهود من أنهم شعب الله المختار، وأنهم أحباء الله، وأنهم مفضلون على غيرهم من الأمم لمجرد كونهم يهودًا.

٣. الوسطية بين الأمم بما تعنيه من العدالة والخيرية والإنصاف وعدم الظُّلم، والتوسطُ في الأمورِ دون إفراط أو تفريط، وما تقتضيها من الشهادة لرسلَ الله أنهم بلّغوا ما أمرهم الله بتبليغه لأممهم ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

فخيرية الأمة الإسلامية منوطٌ بها تكاليفٌ وأعباءٌ تقوم بها، وهي تكليف لا تشريف، وليست حقًا مكتسبًا، ولا منحةً دائمة، بل هي خيرية مشروطة، وتكليف بالعمل والدعوة لهداية البشرية وتعمير الأرض وإقامة العدل، ومتى ما تخلَّف تحقيقُ هذه الشروط جَرَت سُنن الله على قَدْرِ فَقدها والتقصير فيها.

> **الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس، لكن هذه الخيرية ليست دائمة مطلقة على كل حال، بل هي مرتبطةٌ بمهامٍ عظيمةٍ تقوم بها بين الأمم، وصفاتٍ ينبغي أن تتَّصف بها، وتكاليفَ وأعباءٍ تقوم بها**

ضعف قائم وتمكين قادم:

لا شكَّ أنَّ الأمة الإسلامية تعيش منذ زمنٍ أسوأَ حالات الضعف والتخلُّف على جميع المستويات: المعرفيةً، والسياسية، والعسكرية؛ فهي تقبع في ذيل الأمم في مختلف الميادين الحضارية، مسلوبةَ القرار السياسي، ويقع العديدُ من بلدانها تحت الاحتلال المباشر أو غير المباشر، وشعوبُها مسلوبة الإرادة والفاعلية، وخيراتُها مرهونة لأعدائها، وعلومُها في تراجع وانحسار.

وفي المقابل نؤمن أنَّ التمكينَ لدين الله تعالى قادمٌ لا محالة[١] بنصِّ كلامه تعالى، وبشارة نبيه ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥].

وقد وعد الله بنصر عباده المؤمنين، وإعزاز دينه؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣]، وقال سبحانه تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وقال ﷺ: (ليبلغنَّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدرٍ ولا وبَر إلا أدخله الله هذا الدين، بعزِّ عزيز أو بذلِّ ذليل، عزًّا يُعزُّ الله به الإسلام، وذلًّا يذلُّ الله به الكفر)[٢]، وعن أُبيِّ بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (بشِّر هذه الأمة بالسناء والنصر والتمكين، فمن عَمِل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب)[٣].

والأمة ما بين ألم الواقع وأمل المستقبل في صراع وجهاد، تنجح تارةً وتُخفق تارة، تتقدَّم في ميدان وتتخلَّف في آخر، ولن يَعدم العاملون في سبيل نهضتها من أجر العمل والسعي.

أوهام حول النصر:

وهنا لا بد من التنبيه أنه مع شدة ضغوط الواقع وطول أمد الابتلاء.. قد تتعلق نفوس العديد من الناس بتصورات غير صحيحة للنصر والتمكين، من أهمها:

---

(١) ينظر مقال: «هل ستنتصر أمة الإسلام حقًّا؟»، د. عمر النشيواتي، مجلة رواء - العدد الثالث عشر.
(٢) أخرجه أحمد (١٦٩٥٧).
(٣) أخرجه أحمد (٢١٢٢٣).

١. استحقاق النصر بلا عمل، أو لمجرد أنهم مسلمون، والعيش في خيالات التمكين وهزيمة الأعداء بالكرامات والخوارق، وما يرافق ذلك من تفسيرات مغلوطة للنصوص الشرعية وتحريفات لمعانيها، وتطبيقات متنطعة لها. وهذا كله مخالفٌ لطبائع الأمور، وسنن الله تعالى في الكون، فلا نتيجة بدون عمل، ولا ثمرة دون جهد.

٢. إهمال السّنن الإلهية في تحقيق النصر؛ فالله عزَّ وجلَّ لا يمكِّن لعباده في الأرض إلا بعد أن يُبْتَلَوْا، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]، ولنا في سيرة رسول الله ﷺ أُسوة حَسنة، فقد كان في العهد المكيّ مع أصحابه مستضعَفين، ثمّ مَكّن اللهُ لهم بعد ذلك بعد الهجرة وحتى وفاته ﷺ، سُئِلَ الشافعِيُّ رحمه الله: أيُّهما أفضلُ للرجل أن يُمَكَّنَ أو يُبْتَلَى؟ قال: «لا يُمَكَّنُ حَتَّى يُبْتَلَى»(١).

٣. تقزيم معنى النصر واختصاره بصورةٍ واحدةٍ فحسب؛ وهي التغلُّب على الأعداء والإثخان فيهم، أو إقامة الدولة الإسلامية الراشدة أو الخلافة على منهاج النبوة، ونحو ذلك، وهذا وإن كان أهم صور النصر وأوضحها لكنه ليس الوحيد، بل هناك صور أخرى للنصر لا تقل أهمية عن هذه الصورة.

(١) نسبه ابن القيم وغيره إلى الشافعي، ينظر: زاد المعاد (١٧/٣).

من المفاهيم الخاطئة حول النصر: الاستحقاق للنصر دُون عملٍ، وإهمال السنن الإلهية في تحقيق النصر، واختزال النصر بصورة واحدةٍ فحسب؛ وهي التغلُّب على الأعداء والإثخان فيهم، أو إقامة الدولة الإسلامية الراشدة أو الخلافة على منهاج النبوة

من صور الانتصار والظهور على الأعداء:

للانتصار والظهور على الأعداء معانٍ عميقة وصور متعدّدة تتجاوز الحسم العسكري، فيما يأتي بيان أهمّها وأبرزها[1]:

١- ظهور الحق والحجة والبيان على الأعداء:

فالأعداء يدَّعون بأنهم على صواب، وأنهم أصحاب الحق في الأرض، وأهل الحجة والبرهان، ويتَّهمون أهلَ الحقِّ بشتى أنواع التُّهم والافتراءات، فظهورُ بُطلانِ ادِّعاءاتهم واتهاماتهم، وشُيُوع ذلك بين الناس هو نصر عظيم.

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [غافر: ٥١]، قال أبو العالية رحمه الله في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا﴾ الآية: «ذلك في الحُجَّةِ؛ يَفتَحُ اللهُ حُجَّتَهُم في الدنيا»[2]، ولم يزل رسل الله عليهم الصلاة والسلام يقارعون المشركين بالحجج العقلية والحسية على بطلان معتقداتهم ومواقفهم، ويثبتون لهم خطأهم وتناقضهم، فهذا نبي الله إبراهيم عليه السلام قارع قومه بالأدلة والبراهين الدامغة، ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤].

---

(١) ينظر مقال: «معنى الانتصار»، للشيخ صالح الحصين. ومقال: «صور نصر الله للمؤمنين في سورة غافر؛ نظرات وتأمّلات»، لإبراهيم لبيب.

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (١٨٤٣٧).

وإن الأعداء ليبذلون الغالي والنفيس في سبيل طمس معالم الحق وتغييبه عن الناس، وتصوير القضايا على غير وجهها، تخديرًا للشعوب عن نصرة الحق، ومحاولة لتشريع باطلهم وعدوانهم، وانكشافُ كلِّ هذا وظهور بطلانه نصرٌ عظيم، وإيذانٌ بتغير موازين القوى الشعبية العامة.

قال ابن القيم: «لِأَنّ الحُجَّة تسلِّط صاحِبَها على خَصمه، فَصاحِب الحُجَّة لَهُ سُلطان وقُدرة على خَصمه وَإِن كانَ عاجِزًا عَنهُ بِيَدِهِ، وَهذا هُوَ أحد أَقسام النُّصْرَة التِي ينصر الله بِها رسله وَالمُؤمِنِينَ فِي الدنيا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: ٥١]»[(١)].

وقال السعدي: «... فهذا نصّ صريح، وبشارة، بأنّ كلّ مَن جادل الحقّ أنه مغلوب، وكلّ مَن تكبّر عليه فهو في نهايته ذليل»[(٢)].

٢- خذلان الكافرين، وصرفُ كيدهم:

فقد يتمثَّل النصر في فشل مخططات الأعداء وذهاب كيدهم، أو كفِّ عدوانهم على المؤمنين بمختلف الأسباب، وهذا نصر عظيم وربح كبير للمؤمنين، قال الطبري عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٧]: «وَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾، فإنه يَعني بذلك: أَو يُخْزِيَهُم بالخَيْبَةِ بِما رَجَوا مِنَ الظَّفَرِ بِكُم»[(٣)].

أمثلة ذلك أيضًا: قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ

---

(١) الفروسية (١٢١/١).
(٢) تفسير السعدي، ص (٧٤٠).
(٣) تفسير الطبري (١٩٣/٧).

كَلِـمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

ولو ذهبنا لتعداد أنواع خذلان الأعداء، وصور فشل مخططاتهم وهزائمهم لوجدنا من ذلك أنواعًا كثيرة وصنوفًا شتى، لو أنها تحقَّقت لكانت المصيبة كبيرة، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

ومن ذلك ما حصل في غزوة الأحزاب التي انتهت دون قتال، بل أرسل الله ريحًا شديدة على معسكر الكافرين فاقتلعت خيامهم وفروا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩].

٣- اعتراف الأعداء بالهزيمة وفشل مخططاتهم:

فتحقق الهزيمة -الكلية أو الجزئية- والاعتراف بها شديد الوقع على النفس، بما فيه من حسرة وألم وانكسار وندم، وما يحمله من معاني الفضيحة والفشل، ومن أشهر هذه الاعترافات اعتراف فرعون قبيل غرقه، قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

ومن ذلك شهادة الوليد بن المغيرة في القرآن الكريم بعدما سمعه من فم النبي ﷺ، فعاد إلى أصحابه، ووصف القرآن بكلام جميل يدلُّ على اعترافه بعُلوِّ القرآن وظهوره عليهم، وكان مما قال: «والله، إنَّ لقوله الذي يقول حلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّه لمثمرٌ أعلاه، مُغدقٌ أسفلُه، وإنَّه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته»(١).

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٣٨٢٧).

وفي كتابه Beyond Peace كتب الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون: (الإسلام عقيدة قوية، والعلمانية في الغرب لا تستطيع أن تغالبه، وكذلك العلمانية في العالم الإسلامي، إنَّ حقيقة أننا أقوى وأغنى دولة في التاريخ لا تكفي، العامل الحاسم هو قوة الأفكار العظيمة)[1]، وهذا بلا شك اعترافٌ منه بعلوِّ الإسلام وانتصاره.

٤- تخليد ذِكْر المؤمنين:

بأن يبقى اسم المؤمن وذكره إلى ما شاء الله، يدعو له الناس ويترحمون عليه، ويشيرون له بالفضل والأثر، وأنه صاحب حق وصدق، وقد يُتَّخذ قدوةً ومثلاً، فيا له من شرفٍ عظيم! فالذكر الحسن مما تهفو إليه النفوس ويسعى إليه الناس، ولطالما عمد الساسة والرؤساء إلى صنع المجد الكاذب بنصب التماثيل وإطلاق الأسماء على المرافق والميادين بهدف التخليد.

ومن أمثلة ذلك: تخليد ذِكر مؤمن آل فرعون، ومؤمن سورة يس، ومن حُرِّقوا في الأخدود، الذين نزل فيهم قرآن يُتلى إلى يوم الدين، بينما لا تجد أحدًا يثني على خصومهم أو يعتبرهم منتصرين، وما ذكر فرعون أو إبليس أو النمرود وغيرهم إلا زيادة في تحقيرهم في الأعين والنفوس.

قال أحمد شوقي عن الشهيد عمر المختار:

رَكَزوا رُفاتَكَ في الرِمـــالِ لِـواءَ
يَستَنهِضُ الوادي صَباحَ مَساءَ
يا وَيحَهُم نَصَبوا مَنارًا مِن دَمٍ
يوحي إِلى جيلِ الغَدِ البَغـضاءَ
جُرحٌ يَصيحُ على المَدى وَضَحِيَّةٌ
تَتَلَـمَّـسُ الحُـرِّيَةَ الحَـــمـراءَ

(١) مقالة «معنى الانتصار» للشيخ صالح الحصين على موقع rowaq.org.

٥- الانتقام من الظالمين:

فمن سنن الله تعالى: الانتقام من الظالمين بشتى أنواع الانتقام في هذه الدنيا، مع ما يدَّخره لهم من عذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

وأخبر النبي ﷺ أن (دعوةُ المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين)[١]، وقد لا يظهر للناس ما هو هذا الانتقام، فقد يكون في الصحة، أو في النفس، أو في الذرية، أو في كثرة الأمراض الجسمية والنفسية، وقد يكون بتسلُّط أعداء آخرين، ونحو ذلك.

وقد عدَّ النبي ﷺ إغراق فرعون ونجاة موسى عليه السلام مع قومه انتصارًا، واحتفل بذكرى هذا الانتصار بصيام يوم عاشوراء، مع أنه لم يحصل بينهم قتال، وكذلك كان دعاء نوح عليه السلام لربه بعد أن كذَّبه قومه: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ فجاء الجواب: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٢].

٦- تحقق القضية التي يناضل لأجلها:

فكثيرًا ما يناضل الشخص لأجل فكرة أو قضية، ويموت قبل أن يراها أو يرى ثمارها، ثم تتحقق بعد مدة من الزمن، فهذا انتصار في حد ذاته، وهي سنّة لم يتخلف عنها الأنبياء عليهم السلام، فكثير من الأنبياء ماتوا أو قتلوا قبل تحقق النصر على الأعداء أو انتشار دعوتم، وكثير مما بشر به النبي ﷺ إنما تحقق بعد وفاته، وكذلك ما حصل لموسى عليه السلام

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٩٨).

الذي مات قبل دخول الأرض المقدسة، فتابع قومُه من بعده وانتصروا، وغيرها من الحالات.

قال السُّدِّيّ: «لم يبعث اللهُ -عزّ وجلّ- رسولاً قطّ إلى قَوْم فيقتلونه، أو قومًا من المؤمنين يدعون إلى الحقّ فيُقتَلون، فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله -تبارك وتعالى- لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممّن فعل ذلك بهم في الدنيا»[1].

٧- الفوز في الآخرة:

وهذه المسألة من أهم النقاط التي ينبغي العناية بها وتوضيحها وفهمها؛ فالدنيا دار ابتلاء وعمل ومجاهدة، وما قد يحصل فيها من انتصارات أو تمكين فليس هو الأصل ولا الأكثر زمنًا ولا حالاً، بل النصر الكامل هو الفوز في الآخرة، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال سبحانه: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧].

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ۝٥١ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر: ٥١-٥٢].

وهذا الصورة من صور النصر هي الصورة الأكيدة التي لا تتخلَّف في حق المؤمنين وأتباع الأنبياء، بينما قد لا تحقق بقية الصور، أو تحقق بدرجة دون أخرى.

> **للانتصار والظهور على الأعداء معانٍ عميقة وصور متعدّدة تتجاوز الحسم العسكري أو الظفر الدنيوي، ومنها: تحقق القضية التي يناضل لأجلها بعد مدة من الزمن، ولو مات قبل أن يراها أو يرى ثمارها**

(١) تفسير ابن كثير (١٣٧/٧).

ما هو دور الأفراد في أوقات الضعف؟

طُرِقَ كثيرًا الحديث عما يمكن أن تقوم به الجماعات والمنظَمات والدول في العودة بالأمة لمكانتها ودورها الحضاري بما يغني عن إعادته هنا، والسؤال: هل يمكن للفرد أن يقوم بشيءٍ من هذه الأدوار؟ وهل يستطيعُ القيامَ بشيءٍ في مسار التطوُّر والتعافي للمجتمع والحضارة وهو فرد واحد؟ وخاصة عند تعذّر العمل الجماعي أو وجود عوائق وموانع أو مخاطر دونه؟ خصوصًا عند وجود سعةٍ من الوقت والجهد.

والجواب: لا شك أنّ للفرد دورًا عظيمًا في النهضة والخروج من الأزمات، فالأمّة تنهض تبعًا لنهضة أفرادها، ونهضةُ الأفراد تبدأ من الأفكار التي يؤمنون بها، والتي تتحّول إلى سلوكٍ وعملٍ يُحرز التقدّم خطوة بخطوة حتى يتحقق الهدف.

ومن أهّم ما يمكن للأفراد القيام به تجاه أمّتهم:

١. فهم العقيدة الإسلامية الصحيحة والتمسك بها، بعيدًا عن تحريف الغالين وانتحال المبطلين وترقيعات أعوان الطغاة والظلمة، وإدراك أبعاد الحضارة الإسلامية بخصائصها ومميزاتها وأوجه خيريَّتها، والمهمة التى أناطها الله بها تجاه غيرها من الأمم؛ فهذا رأس المال والركن الأساس في أيّ نهوض حضاري؛ ففي أوقات الضعف والانحلال تضعف الأفكار في النفوس وتضمحل، وتتعرض للنسيان والهجر، بل قد تتعرض للتحريف والتأويل وفق ظروف الثقافة الغالبة والمسيطرة كما هو المعتاد من تأثر الضعيف بالقوي. فالعمل ومكابدة المشاقّ والنهوض والانتصار تحتاج إلى عقيدة صافية وإيمان راسخ ويقين ثابت.

٢. الثبات على الدين والتمسُّك بالهوية والقيم الثقافية، والاستعانة على ذلك بالعبادات والطاعات؛ ولذا كانت العبادة وقت الفتن واختلاط الأمور وتخبّط الناس وانهماكهم في

الدنيا كهجرة إليه ﷺ كما جاء في الحديث[1]، ولا شّك أنّ لهذا الثبات دورًا مهمًا في الحفاظ على المبادئ وتماسك الهوية، ورفع روح الانتماء، والاعتزاز بالمبادئ والقيم.

٣. فهم الواقع الذي تعيشه الأمة فهمًا صحيحًا، والوعي بمخططات الأعداء وحروبهم الفكرية والنفسية والاجتماعية، مع معرفة نقاط الضعف وعوامل القوة، والفُرص المتاحة؛ للإفادة مما يقدّمه العصر من أدوات ووسائل تفيد في طريق التحرر والنهوض.

٤. الدفاع عن هذه المعرفة والفهم، ومقاومة كل ما يُضعفها، والرد على الشُّبهات والطعونات فيها؛ للحفاظ على الفكرة ناصعة البياض، وإبقاء الجذوة مشتعلة في النفوس دون كدر أو غبش.

٥. نقل الوعي والمعرفة والمبادئ والقيم من جيل إلى جيل، وتربية الأجيال على هذا الوعي، وتنشئتهم على مخاطر الطريق ومصاعبه؛ مما يزيدهم صلابة وقوة واستعدادًا للتحمّل والمواصلة، وليقوموا بدورهم في نقلها للأجيال التالية، مما يعززها ويبقيها حية.

٦. العمل على إشاعة الاهتمام بقضايا الأمّة، وشعور الجسد الواحد، وتعزيز التكافل الاجتماعي والتضامن بين المسلمين في المحافل واللقاءات والتجمعات؛ بهدف تقريب النفوس من حالة وحدة الصف واجتماع الكلمة، والإبقاء على القضايا الملتهبة والجراح النازفة والدفع بها نحو الحلّ النهائي ضمن الاهتمام العام.

٧. بث الأمل والتفاؤل الصحيح المنضبط الذي يدفع إلى العمل والبذل، وإحداث التغيير الإيجابي، ودفع اليأس والإحباط

---

(١) أخرج مسلم (٢٩٤٨) عن معقِل بن يسار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (العبادةُ في الهَرْجِ كهجرةٍ إليَّ)، والهرج: الفتنة واختلاط أمور الناس.

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

والتشاؤم الذي يدفع إلى القعود عن العمل، وربما التحوُّل إلى مِعْول هدم وإفسادٍ بحُجَّة أنه لا فائدة، مع الحذر من التعلُّق بالأوهام والتصوُّرات غير الصحيحة للنصر والتمكين.

٨. التضامن والتكافل الاجتماعي وتقديم المساعدة بالمستطاع، ولو كانت بإظهار التعاطف والدعم والتشجيع؛ فالدعم المعنوي له أكبر الأثر في التثبيت على الحق وعدم التراجع، وتشجيع الآخرين على تقديم يد العون والمساعدة.

٩. بذل الجهد فيما يعود على المجتمعات بالبناء والنهضة، كالتعلم وتطوير المهارات، والاستفادة مما أبدعه الآخرون لا سيما وقت الأزمات، والتفاعل الثقافي بهدف التفاهم والتواصل مع الثقافات الأخرى لنقل وجهة النظر إليهم وإطلاعهم عليها، وتعزيز المشاركات المجتمعية كالأعمال التطوُّعية والمبادرات غير الربحية وغيرها، حيث يمكن لهذه التجارب أن تنمِّي الخبرات وتُعزِّز فاعلية الأفراد بما يؤهِّلهم لأدوارٍ مجتمعيةٍ قياديةٍ في المستقبل، وعند الحاجة إليها.

١٠. دعم جماعات الضغط وجمعيات المجتمع المدني، والعمل بالمتاح في أروقة المحاكم المحلية والدولية والضغط على الأنظمة السياسية.

١١. السعي لبناء نواة صلبة مؤثّرة (طليعة) واعية ومُصلحة في المجتمع، تعمل على إبقاء الوعي بقضايا الأمّة وآلامها وآمالها حيًّا نابضًا، وتبث الأمل فيهم وتدفع عنهم اليأس، وتصحّح مسار العمل، وتعين على تقديم الأولويات، وضبط السرعة دون إفراط أو تفريط.

١٢. المساهمة الإعلامية الواعية الفاعلة بمخاطبة الشعوب والجماهير بلغة مناسبة مباشرة، ومحاولة التأثير فيهم ببيان الحقائق وكشف الزائف والتضليل، وبخاصة من يتقنون اللغات العالمية.

١٣. تقديم البحوث والدراسات ومختلف المواد العلمية والبحثية لخدمة قضايا الأمة، لإثرائها بالمعرفة اللازمة، وإرشادها وتوجيهها بما يخدمها بشكل فاعل.

> **كما أن الجماعات والمنظمات والدول لها دورٌ في العودة بالأمة لمكانتها ودورها الحضاري، فإنّ للفرد دَورًا عظيمًا في النهضة والخروج من الأزمات، فالأمّة تنهض تبعًا لنهضة أفرادها، ونهضةُ الأفراد تبدأ من الأفكار التي يؤمنون بها، والتي تتحّول إلى سلوكٍ وعملٍ يُحرز التقدّم خطوة بخطوة حتى يتحقق الهدف**

إن هذه الجهود وغيرها مهما بدت صغيرة أو متناثرة، لكن لو قام بها الأفراد خير قيام لأدت إلى تغيرات كبيرة وحقيقية، وهو ما يؤدي إلى تقدم المجتمع ونقله إلى مرتبة أعلى، والتي تؤدي بدورها إلى نقلة أخرى، وهكذا تستمر المسيرة، فتبلغ الأمة بعض أهدافها وتحقق بعض غاياتها، إلى أن يأذن الله بالتغيير الشامل الذي لا يأتي دفعة واحدة، بل يكلل الجهود الكثيرة المجتمعة.

حضارة وفكر

مقدمات معرفية في التدافع الأممي والحضاري ودور اللامركزية فيه

م. طاهر صيام

باحث في الحضارات والفكر، عمل في جامعة ولاية واشنطن

الفهرس

في أجواء الصراعات والتدافع الحضاري وانسداد أفق الحداثة وتمدد الإسلام العالمي دعويا وديمغرافيا، تبرز الأسئلة المعرفية التي تفتح أبواب التغيير في المجتمعات والأمم التي تبحث عن الأجوبة الكبرى، *فالتدافع الأممي ما لبث يشتد ويتنوع*، والأمة الإسلامية تتلمس استعادة دورها الريادي، وفي المقابل أخذت تظهر مساوئ الحضارة الغربية واضحة جلية على مختلف المستويات، وهذه المقالة تلقي الضوء على معرفية التدافع الحضاري ودور اللامركزية فيه.

ينبغي لنا دراسة تدافع المجتمعات ومسائل الحضارة بشكل أوسع بكثيرٍ من حدود الواقع المرحلي، ولا بدّ من إدراك أسس النماذج الحضارية، وقد درس ثلةٌ من الجهابذة المنظومات الحضارية بصورة منهجية ركزت على (النماذج المعرفية) كي تفكِّك وتشخص خصائصها وقابلياتها ومساراتها.

الحضارة والثقافة والمدنية:

ساد اضطراب في تعريفات الحضارة والثقافة والمدنية، فقد توفرت في وعاء اللغة العربية الرصين هذه المفاهيم الثلاثة، فانضبطت غالب التعريفات الإسلامية، لكن في اللغات الأوروبية وُجد فقط مفهوما الحضارة والثقافة – Civilization & Culture – مما أنتج تعريفات مدرسية غربية متضاربة، أخذ بها بعض المسلمين دون إدراك هذه العلّة[١].

«الثقافة تبدأ «بالتمهيد السماوي» بما اشتمل عليه من دين وفن وأخلاق وفلسفة، وستظل الثقافة تُعنى بعلاقة الإنسان بتلك السماء التي هبط منها، فكل شيء في إطار الثقافة إما تأكيد أو رفض أو شك أو تأمل في ذكريات ذلك الأصل السماوي للإنسان...»[٢].

(١) ينظر: الحضارة - الثقافة - المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، لنصر عارف، ص (٤٥).

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب، ترجمة محمد عدس، مؤسسة بافاريا، ط١، ص٩٤.

وهكذا فإن علي عزت يعتبر استمداد الثقافة سماويًا كونها فطرية. وبالتالي: فإن الغرب العلماني بحضارته في حالة عداءٍ لثقافة الإنسان من حيث إنها ثقافة منشؤها سماوي ديني فطري.

ويُعذر بيغوفتش على جبرية ثنائية المصطلح في وعاء لغته الأوروبية والذي اقتصر على الثقافة والحضارة دون المدنية فجعل تعريفه قاصرًا.

يؤكد لنا مالك بن نبي مفهومه للحضارة في عدة كتب، فهي: «جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره»[١].

كما سنجد تعريفات قريبة عند المودودى وسيد. ومن ساوى بين الحضارة والمدنية يكون قد ألبس الحضارة لبوسًا علمانيًا خاليًا من تأثير المعتقدات والثقافات على الحضارة.

وقد أسهب نصر عارف في تحليل الآيات القرآنية وخلص إلى: «إنّ الحضارة هي الحضور والشهادة بجميع معانيها والتي ينتج عنها نموذج يستبطن قيم التوحيد والربوبية...»[٢]. أي إنّ الحضارة تستبطن الأفكار والثقافات، فالحضارة بهذا المعنى هي حضور الإسلام في الكون، وبالتالي لا يمكن استقلال الحضارة والثقافة والمدنية عن بعضها البعض، وذلك لارتباط الظاهر بالباطن كما قرر ابن تيمية، وهو المشاهد في أحوال الناس والمجتمعات[٣].

(١) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص (٤٢)، وكذلك: آفاق جزائرية، ص (٣٨)، وفلسفة الحضارة عند مالك، لسليمان الخطيب، ص (٣٩).

(٢) الحضارة - الثقافة - المدنية، دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، مرجع سابق، ص (٥٧-٦٠).

(٣) ينظر كذلك: رؤية العالم والمسألة الحضارية، عبد الله محمد الأمين، ص (٤٤-٦٤).

وعليه يمكننا القول:

«الثقافة: هي مجموعة الأفكار والمثل والمعتقدات والعادات والمهارات والآداب التي تكوّن الرؤية العامة للأمة، وتحدد طريقتها في التفكير وتفسير الظواهر، وتحدد علاقتها بالآخر، بل وتحدد تفسيرها لما وراء عالم الشهادة.

الدنية: هي الأشكال المادية المحسوسة التي تستعمل في شؤون الحياة وهي المظهر المادي للحياة، وتشكل الانعكاس الطبيعي للثقافة. فالمدنية ليست محايدة لأن الأمة تعبر عن ثقافتها في مدنيتها.

الحضارة: هي خلاصة تمازج الثقافة والمدنية مراعيً فيها عامل الوقت؛ فكل جماعة من البشر يحملون أفكارًا وأخلاقًا استلهموها من مزيج عقائد وعوائد، ومع مرور الوقت تمتزج هذه الأفكار بمتطلبات الحياة فتنتج حضارةً تميزها، وبالتالي فالحضارة هي المنتج النهائي والمظلة العامة، فهي ليست قسيمًا للمدنية ولا للثقافة»[1].

العوامل التي أنشأت الحضارة الغربية والإسلامية:

ترتكز الحضارة الغربية في أساسها على عاملي الطبيعة والإنسان، ونظريات الوجود في تصورها ترتدّ إلى التراث اليوناني والروماني الوثني، من نتائج انحصار الفلسفة الغربية في دراسة الواقع المحسوس تمركزها حول الذات الإنسانية والطبيعة، فلا غرو أن يُعتبر العرق الأبيض العامل الأساس في إنشائها، وأن ينشأ صراعٌ بين الإنسان والطبيعة. إنّ الحضارة الغربية أفسدت البيئة الكونية لأنّ علاقاتها بالكون والآخر تأسست على فكرة الصراع والبحث عن عدو دائم، كما استبعدت البعد الغيبي وعملت على تضخيم دور الإنسان بجعله مركزًا وإلهًا

(١) التعريفات، للشيخ حسن الحميد، من موقعه بعنوان: «الثقافة والمدنية والحضارة» بتصرف يسير.

للكون؛ فقد سعت لتحقيق اللذة والمنفعة للإنسان مع إهمال الجانب الروحي[١].

أمّا الحضارة الإسلامية فعامل قيامها الأساس هي الرسالة، وبالتالي هي حضارة ربانية تقوم على الإيمان والولاء للإسلام وعقيدته، وتتميز بالعالمية والحيوية والمساواة وإصلاح الكون... حضارة أخلاقية ملائمة لفطرة الإنسان وخصائصه، وهي حضارة علميةٌ تتميز بالأمانة والدقة كالإسناد والاستقراء.

وعلى هذا الأساس فإنّ دراسة الحضارات لا تتم بمعزل عن حقيقة الوجود وغاية الحياة، ولهذا: لا يمكن بناء ثقافة أو حضارة على أصولٍ ثقافية لحضارة أخرى؛ لاختلاف النماذج المعرفية بين الأمم، بل ذلك أحرى بتزاحمها وتدافعها، إذ إنّ الحضارة الإسلامية بامتدادها المكاني والزماني في قلب العالم، وكونها أساسًا حضارة سماوية عادلة، فقد حَتَّمَ ذلك حصول التدافع، هذا الاختلاف المنهجي التركيبي جعل البعض يتحفظون على مشروع أسلمة المعرفة الغربية، وقد لاحظنا ارتباك أسلمة مفهومي الحضارة والثقافة عند الغرب.

هل الشرق متخلفٌ عن الركب الحضاري الغربي؟

المقارنة بالغرب مع عدم إدراك شدة نقص الركب الحضاري الغربي ذاته، هو بسبب الإغراق في المرحليات وتجاوز النماذج العليا الناظمة، وهي علّة الحتميات التاريخية لأمثال فوكوياما الذي جعل تطور حضارة الغرب سقفًا أبديًا، فيما ادعى هنتنجتون أنّ الحضارة الغربية كونيةٌ وغيرها إقليمية، وقُل مثل ذلك عن سيادة العنصر الأبيض عند هيغل والداروينية الاجتماعية[٢].

(١) ينظر: رؤية العالم والمسألة الحضارية، مرجع سابق، ص (٧).
(٢) للاستزادة: «مؤشرات قرآنية: نموذج لرصد حركة المجتمع»، لنزار كريكش، ص (٤٦).

إنّ حكم بعض مثقفينا بأن الشرق متخلفٌ عن الغرب حضاريًا حكمٌ معلول يعود إلى عدم استيعاب النماذج المعرفية، فالمنطلق الحضاري لأمتنا في شقه الثقافي -رغم إقرارانا بمشاكل الشرق المزمنة- لا زال هو الصواب دون غيره كونه سماويًا، وإن كنا نجزم بتخلفنا عن المنهج الرباني. أمّا تخلفنا في جوانبَ (مدنيةٍ) تنظيمية وسياسيةٍ وصناعية وتجريبية، فهو جرّاء تعطيل فاعلية ثقافتنا نتيجةً لتنكبنا عن القيم الإسلامية والاستبداد، ثم مساهمة المطارق والحبال الغربية في بعض ذلك.

اعتبر «اليكسيس كاريل» في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» أنّ التقدم في فهم الإنسان في بعده النفسي والأخلاقي هو معيار الحكم، وبالتالي حكم كاريل على «الحضارة الغربية» بالتخلف لأنها متخلفةٌ شقيةٌ في الإنسانيات. وقد بنى سيد كتابه «الإسلام ومشكلات الحضارة» على تشخيص كاريل بطوله، وإن كان سيد والمسيري والحصين[1] وآخرون يتقدمون إلى (نقد مدنية) الغرب أكثر ولا يكتفون بنقد ثقافتها، بل يفككون مدنيتها ملاحظين ما جرّته من حروبٍ وإفسادٍ للبيئة والاقتصاد والنسل والغذاء والصحة والمساكن داخل ديار الغرب وخارجها، أي: العلمنة الشاملة للحياة حسب تعبير المسيري.

هل السباق الحضاري على ذات المسارات؟

يخال السامع لمن يقولون بتأخر العالم الإسلامي عن ركاب الأمم والحضارات، أنّ (السباق معياريٌ موحدٌ)، وكأنه سباقٌ على ذات الجادة وقوانينها وغاياتها. لذا، ينطلق كثرةٌ من المثقفين إلى قياس أسباب تأخرنا على مظاهر سَبْق الغرب؛ فيطالبون مثلاً بتخطيط المدن والمدارس ونُظُم العمل بما

(١) ينظر في: كتب صالح الحصين مثل «التسامح والعدوانية بين الإسلام والغرب» و«العلاقات الدولية».

يقلص الهوة مع التنظيمات الغربية. لا بد هنا أن ننتبه إلى أنّ هذه الإسقاطات ليست هي محور التقدم والتأخر، بل هو مدى التزامنا بالثقافة الإسلامية التي تحث على النظام والإحسان والاعتدال.

> **الحكم بأن الشرق متخلفٌ عن الغرب حضاريًا حكمٌ معلول يعود إلى عدم استيعاب النماذج المعرفية، فالمنطلق الحضاري لأمتنا في شقه الثقافي لا زال هو الصواب دون غيره كونه سماويًا، على ضَعفٍ في تمسُّكنا به، أمّا تخلفنا في الجوانبَ المدنيةً فهو نتيجةٌ لتنكبنا عن القيم الإسلامية، ثم مساهمة المطارق والحبال الغربية والاستبداد في بعض ذلك**

نعم هناك سباق، لكن كلٌ يجري في مسارٍ مختلفٍ شكلاً ومضمونًا وغايةً. فكِلا الطرفين لديه نموذجهً المعرفي والثقافي وبُنْيَته وأولوياته، وإن كان استخدام (ذات الأدوات) الإدارية والتقنية النافعة أمرًا بدهيًا. وكِلا المسارين له سُرعات واتجاهات ومعايير متباينة، بل يصطدمان أحيانًا ويتدافعان أحايين أخرى، وقد يحاول أحدهما دفع الآخر عن مساره أو تعطيله من خلال وسائلَ ناعمةٍ وخشنةٍ، وكلاهما لديه تصوراتٌ ومفاهيم وقوى دفعٍ ديمغرافية واجتماعية مختلفة لا يمكن أن تتتابع وتتراكب، بل ستتدافع حتمًا. وهكذا فإنّ القياسات الحضارية على تقدم الغرب في مساراته لا تستقيم، كمحاولة تمثُّلِ نموذج التحرر البروتستنتي والثورة الفرنسية ومسارات الحداثة حسب نموذج «النظرية التحديثية».

مدى قابلية حضارتنا للنهوض:

يحسُن بنا فهم التباين السابق من خلال استنطاق التاريخ، كما علينا أن نأخذ في الحسبان عند دراسة قوة أي نموذج حضاري، عواملَ كامنةً فاعلةً فيه مثل: مدى قابلية الانعتاق والانبعاث وسرعته ومرونته، تلك لعمرك التي جعلت المسلمين يُغيرون وجه التاريخ والجغرافيا بسرعةٍ قياسيةٍ خلال ٨٠ عامًا، بينما احتاجت الحضارة الرومانية إلى قرابةٍ ١٠٠٠ سنة لتبلغ ذروتها، ثم سقطت في قرنٍ واحدٍ دون تمنُّع، كما نهض المسلمون كرات في عهد المرابطينً والسلاجقة والزنكيين ثم حين صدوا التتار وأنهوا الحروب الصليبية ثم نهض الترك بالأمر[١].

وعليه يتبين الفارق الكبير في طبيعة وحيوية تجدد ونهوض العالم الإسلامي، إذ يصفها العلامة الحصين «بالتجدد والاستمرار والاستعصاء على عوامل الهدم التي لم تستطع أن تقاومها الحضارات الأخرى، حيث استمرت حضارتنا تؤدي دورها قرابة ١٤ قرنًا بالرغم من التقلبات السياسية والحروب المُستأصِلة كغزو التتار والصليبيين... فهي بصفاتها الحضارية قادرةٌ على مقاومة عوامل الفناء»[٢].

ولقد لاحظ توينبى أن البشرية مرت بأكثر من ٢٠ حضارة، كلها بادت أو في طريق الفناء بسبب الحروب أو الطبقات، وتعجب بقوله: «حضارتنا الغربية ليست محصنةً ضد هذا المصير»[٣].

باترسون وبدعة التحضر الغربي:

توماس سي باترسون -عالم موسوعي مرموق في الإنسانيات في جامعة كاليفورنيا، أحدثت كتاباته أثرًا- تقدّم أكثر ليدحض

(١) ينظر كذلك: الإسلام على مفترق طرق، لمحمد أسد، ص (٣٣-٣٤).
(٢) ورقة: تعليق على الحضارة والتقدم، لصالح الحصين، بتصرف يسير، ص (١٦).
(٣) Civilization on Trial, p٣٨

مصطلح الحضارة الغربي بصورةٍ جذرية؛ إذ يعتبره خدعةً نفسية وماكينةً طبقية عنصرية ودعايةً إمبريالية استعمارية، وهو ينتمي بذلك إلى طيفٍ من ناقدين غربيين؛ كموريس بونديل وفرانز فانون وغاستون بيرجيه ورجاء جارودي.

اعتمد باترسون في كتابه «الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ» على حصادٍ غني من دراساتٍ أكاديميةٍ مدعمةٍ بشهاداتٍ بارزة، أثبتت التمييز العنصري فكريًا عند الغرب والتي اقترنت بصعودِ قوى الرأسمالية في عصر الصناعة، واطردت لتكون دعامةً لما يسمى «العالم الحر المتقدم».

ويعلق باترسون: «يعرض هذا الكتاب موضوع الحضارة التى تعنى التراتبيات الهرمية الاجتماعية والثقافية وما تنطوي عليه من عدم مساواةٍ ومظالمَ... ولأن أنصار الحضارة كانوا دائمًا معادين للديمقراطية؛ فقد عارضوا فكرة وجود مجتمعات لا-طبقية أو تصور علاقات اجتماعية قائمة على مساوة حقيقية...»[١].

وباترسون ينتقد (طبقية) قضايا المساواة والديمقراطية والمُلكيات داخل وخارج المجتمعات الغربية.

«يعتقد نيوت جنجريتش -زعيم ومنظر جمهوري بارز- أن الحضارة الأمريكية يتهددها خطر التنوع الثقافي نتيجة الهجرات إليها، وبسبب حركة الحقوق المدنية التي طالبت بالمساواة في الحقوق للأقليات في الستينات... ويذهب إلى أن الدولة يجب أن تسيطر على هذا التنوع وعلى اللغات... ويتصور كذلك أن الحضارة المتقدمة (المرتكزة على التكنولوجيا الراقية) هي مجتمع ضارب بجذور راسخة...»[٢].

(١) الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ، لتوماس باترسون، ترجمة شوقي جلال، ص (١٦).
(٢) المرجع السابق، ص (٦-٧).

جينجريتش لا يبتعد عن رؤية نيكسون للمجتمع ولا عن كتاب هنتنجتون «من نحن؟»، حيث طالب فيه بتعميم ثقافة ولغة الأنجلوساكسون البروتستانت. وهكذا نلاحظ أنّ مدنية الغرب - كنظام الملكيات وفرص العمل والأجور وتخطيط أحياء السود، وكلها متعلقة بجودة الحياة المدنية - مليئة بالعورات أسوةً بثقافته؛ إذ إنها من مخرجات الطبقية التراتبية التي تقنن مقادير المساواة والديمقراطية والعدالة بين فئات مجتمعاتها -وإن كنا نفتقر لهذا القدر مشرقيًا- وهو ذات التقنين الذي نادي به كيسنجر محليًا. أمّا مدنية الغرب المتقدمة فحقيقتها في مجال الصناعة والتكنولوجيا والمعاهد، لذا تصدرت الحضارات بقوة المال والسلاح والعلوم المادية.

> **علينا أن نأخذ في الحسبان عند دراسة قوة أي نموذج حضاري، عواملَ كامنةً فاعلةً فيه مثل: مدى قابلية الانعتاق والانبعاث وسرعته ومرونته، تلك التي جعلت المسلمين يُغيرون وجه التاريخ والجغرافيا بسرعةٍ قياسيةٍ خلال ٨٠ عامًا، بينما احتاجت الحضارة الرومانية إلى قرابة ١٠٠٠ سنة لتبلغ ذروتها، ثم سقطت في قرنٍ واحدٍ دون تمنُّع**

محورية سنن التدافع في السياق الحضاري:

لأنّ أفكار الناس وعقائدهم متعدّدةٌ، فقد تعدّدت تبعًا لذلك الثقافات وبالتالي الحضارات الناتجة عنها، وهيمن الصراع والمدافعة على العلاقة بين الحضارات، صراعٌ وتدافعٌ تحكمه سننٌ إلهيةٌ معلومةٌ، «فليس من مصلحة الإنسان أن تخلو الحياة من التدافع؛ لأنَّه هو الطريق إلى دفع الفساد عن الأرض وإقرار الحق والعدل... وبدون ذلك، تأسن الحياة وتسيطر عليها روح

السلبية... ولدفع عوامل الإفساد التي تضر بالحياة، اقتضت حكمة الله أن يقرّ هذه السُّنة. وهذه المدافعة تتجلى في صورٍ شتى، تبعًا لاختلاف الدوافع والأسباب»[١].

إذن، التدافع من السنن الإلهية المتعلقة بالتجديد والتغيير ما بين ارتفاع وهبوط، كما دل على ذلك حديث: (حَقٌّ على اللهِ أَنْ لا يَرتفعَ شيءٌ من الدنيا إلّا وَضَعهُ)[٢].

فالتدافع يهدف إلى «تحريك الحياة نحو الأحسن، وتخطي مواقع الركون والسكون والفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تشد عزائمها وتصقل قدراتها المقاومة الصاعدة في غمرة التحديات التي يطرحها الصراع؛ للكشف عن مواقف الجماعة البشرية، والتعرّف على أصالة المؤمنين»[٣].

إنَّ الناس في ظل غير المنهج الإلهي، يدافعون عن مصالحهم وتأمين شهوات حب التملك والتسلط والترف، وهذه الأشياء غالبًا لا تحصل إلا مع الظلم والعدوان، والمنافسة المُفْضِيَة إلى المدافعة والصراع.

«فليس كل صراع إذن مشروعًا ولا مطلوبًا، بل إنَّ معظم الصراع من الفساد الذي ينهى الله عنه، ويأمر بالجهاد لدفعه ولإزالته»[٤].

أشكال التدافع: المدافعة الحضارية تكون بكل وسيلةٍ مشروعة مادية كانت أو معنويةٍ، ولا بد «أن يتخذ لذلك التدافع كل أشكال الصراع: مذهبيًا، سياسيًا، عسكريًا، أخلاقيًا، اقتصاديًا، وحضاريًا... أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر»[٥].

(١) سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن، لحسن الحميد، ص (٢٢٦).
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٧٢).
(٣) التفسير الإسلامي للتاريخ، لعماد الدين خليل، ص (٢٤٢).
(٤) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، لمحمد قطب، ص (١٦٠).
(٥) التفسير الإسلامي للتاريخ، ص (٢٤٧-٢٤٩).

وهكذا لو عدنا إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١] لوجدنا أنّ «خلاصة أقوال أهل العلم بالتفسير ليس بينها تعارض، واختلافهم فيها اختلاف تنوع... ذلك أنّ المدافعة بين الحق والباطل ذات دوائر، بعضها محيط ببعض، فمدافعة العصاة من أهل الملة دائرة، ودفع المنافقين وفضحهم دائرة من ورائها، ومدافعة الكفار ومجاهدتهم من بعد ذلك...»[١].

معرفية التدافع:

* **أسئلة الحروب وقلقها:** تحطمت فرنسا بعد حروب نابليون والصين بعد حروب الأفيون وغيرها، ثم تحطمت ألمانيا واليابان، لكن الفارق أنّ تلك الشعوب قررت أن تتعامل (بقوة المعرفة) لتنهض سريعًا وتُحدث تغيُّراتٍ اجتماعية وهيكلية واقتصادية. كل ذلك إثر سلسلة حروبٍ وفواجع. لقد غيّرت تلك الشعوب موقفها من المعرفة وأثارت تساؤلات ذهنية جادة ثم بدأت بروحٍ ونمطٍ مختلف.

بعد الحرب العالمية الثانية كتب فرانسوا فوريه مقالًا بعنوان: «تيه المثقفين بعد الحرب العالمية الثانية»، وبعد الثورة الجزائرية ضد الاستعمار كتب مالك بن نبى: «تيه المثقفين الجزائريين بعد الثورة»[٢]، من هنا سجل بعض المؤرخين أنّ الحروب الكبرى والكوارث تُحدث تحفيزات معرفية وتغييرات بنيوية.

* **الحروب والمعرفة:** إننا لا نقول إنّ الحروب أمرٌ حسن، بل الإسلام يقدم السِلم على القتال ويعتبره كُرهًا، لكن هذا لا ينفي أنّ الحروب جزءٌ من (ميكانيكية التدافع) بين الأمم،

(١) سنن الله في الأمم، لحسن الحميد، ص (٢٣٤).
(٢) أسئلة الثورة، د. سلمان العودة، مركز نماء، ص (١٧) .

وإنْ كنا نحذر من سطحية فهم قضية التدافع وحصرها بالحروب وقوة الساعد. المعارك الحاسمة تأتي ضمن السياق السابق، وهي في أحيانٍ عديدة تشكل انعطافاتٍ تاريخية لبداية هبوطِ حضارةٍ ما ونهوض أخرى، كما حصل عقب معركتي اليرموك والقادسية حيث انفتحت للمسلمين المعارف والشرق والغرب حتى الصين والأندلس.

كما لاحظ بعض المؤرخين أن (بدايات النهضة الأوروبية) كانت مع انتقال معارف وصناعات حيوية من الشرق إلى أوروبا بسبب احتكاك الحروب الصليبية، كاستخدام البوصلة وآلات الرصد الفلكي والحمام الزاجل، وزراعة القطن والأرز والسكر وصناعة الورق التي أسهمت في النهضة الأوروبية(١).

نلحظ هنا كيف أنّ انتقال مدنية العلوم التجريبية والصناعات من الشرق إلى الغرب أسهم في تغول حضارةٍ غربية بسبب انحراف المكون الثقافي الغربي فما أحلّه الإسبان والبرتغال بالمستعمرات مكان الأندلسيين شاهد.

ثم إنّ نابليون غزا مصر لما فيها من علوم قديمة وموقع جغرافي، واصطحب نابليون عددًا كبيرًا من الباحثين، وقبلها تفتّحت لأوروبا أبواب المعارف والثروات مع حركة الكشوف الجغرافية والمستوطنات لتتوج بالثورة الصناعية. ويمكن ملاحظة أن العقد الاجتماعي والسِلم الأهلي تبلور إثر «حروب أوروبا» الطويلة. وفي سياق الحروب نشأت الابتكارات والهندسة العسكرية ثم ظهرت الهندسات المدنية.

- **أثر المقاومة:** مقاومة الاحتلال وطلب الحرية وسيلةٌ لتقارب الشعوب وتعارفها، كما قرر عبد الكريم الخطابي صاحب مفهوم «انتصار شعبٍ مُستضعَف هو نصرٌ لكل المستضعفين»، ومفهوم «الاستعمار تبور أسواقه بالمقاطعة

(١) نتائج الحروب الصليبية، لجوزيف بورلو، ترجمة ديمة الفوال، ص (٢٣٠).

كيف نستفيد من اللامركزية في المدافعة الحضارية لأمة الإسلام؟

- استثمار القوة الدعوية التي تستجيب لها الفطر على مستوى العالم
- حشد الطاقات في التواصل وفتح الجسور مع الآخر قبل الانتقال نحو أي تتويج مركزي
- تعدد نقاط التدافع مع القوى المعادية مما يحقق التمكن في نفوس المدافعين ومن حولهم
- إظهار الجوانب القيمية العليا في الإسلام في مختلف الميادين والمجالات
- تجنب الصراعات الداخلية وردود الأفعال المرتجلة غير المدروسة تجاه الاستفزازات
- ابتكار أدوات جديدة للتغيير، وتفعيل وتحسين الموجود منها
- تنشئة الأجيال وتوعيتها على الرسالة النقية وضخ الدماء الجديدة في الأمة
- تنويع التخصصات والاهتمامات والميادين ومستويات التركيز في مختلف المجالات
- تشجيع المبادرات والأعمال القابلة للتعدد وصناعة التعاون فيما بينها

ثم يُدفن بالقتال». كما إنّ لمكافحة الظلم والاستعمار بعدًا معرفيًا؛ فالإنسان بفطرته يتجه إلى مركزية الخالق وليس نحو مركزيةِ سلطةٍ بشريةٍ أخرى تقهره كالنظام العالمي، ولهذا الفعل في طلب التحرر والإنسانية والعدالة ما يشد فطرة البشر والأذهان نحو رسالة الإسلام والعدل، ولنا أن نلحظ انعكاس ذلك على تفاعل شعوب العالم مع غزة.

* **التحدي والاستجابة عند توينبي ونيكسون:** يحدثنا توينبي في نظريته «التحدي والاستجابة» عن شعوب تستجيب للتحديات كالجزائر، فتحفظ بذلك لغتها وهويتها، وأخرى تنسحب كالأزتيك والإنكا والهنود الحمر، وهو يستدل بابن خلدون في بعض استمداداته، لقد اعتنقت أمريكا عمليًا هذه النظرية مع دخولها الحروب العالمية لتكتشف المكاسب الجيوسياسية والاقتصادية لتفاعلها الدولي ودخولها المعتركات حيث تحولت إلى «سوبر باور».

التنظير لهذا «المفهوم التوينبي» يتجلى في عبارات نيكسون المحورية وهو يشخص مستقبل قيادة أمريكا للعالم فيقول: «إن معظم أفضل الرؤساء الأمريكان هم الذين خاضوا حربًا، وأعظم الطفرات الأمريكية في الإنتاج والتقدم العلمي قد حدثت أثناء الحروب»[١]، ويؤكد أنّ «نهاية الحرب الباردة فاقمت مشاكلنا... كنا نتحد ضد التحديات الخارجية، وبتنا نتفرق ضد التحديات الداخلية» رغم النصر، ثم يضيف: «هذا لا يعني أن الحرب أمر حسن، بيد أن أمريكا كانت في أوج حالها يوم واجهت عدوًا وتحديًا دوليًا ذا شأن»[٢].

إنما كل هذا ما كان ممكنًا لولا النهضة العلمية التجريبية الأمريكية والبناء الذاتي.

> **من غايات سنة التدافع: «تحريك الحياة نحو الأحسن، وتخطي مواقع الركون والسكون والفساد، ومنح القدرة للقوى الإنسانية الخيرة كي تشد عزائمها وتصقل قدراتها المقاومة الصاعدة في غمرة التحديات التي يطرحها الصراع؛ للكشف عن مواقف الجماعة البشرية، والتعرّف على أصالة المؤمنين»**
>
> **المؤرخ عماد الدين خليل**

التدافع وفاعلية اللامركزية المعنوية والحسية:

التدافع له مقدماتٌ، ويحتاج قوىً معرفية وتفعيلَ طاقاتٍ متنوعةٍ تجعل منه تدافعًا حضاريًا يستدعي كل الإمكانات الحضارية (اللامركزية) الناعمة والمعنوية والمادية لدى الأمة؛

(١) ما وراء السلام، لنيكسون، ترجمة مالك عباس، ص (١٨).
(٢) المرجع السابق، ص (١٨).

بكل طاقاتها وتنوعها العرقي وأطراف امتدادها الجغرافي والمعرفي. إنّ هذه (اللامركزية) قوةٌ رساليةٌ دعوية تستجيب لها الفطر والنفوس على مستوى الانتشار العالمي الواسع وحشد الطاقات وفتح الجسور مع الآخر قبل الانتقال بها نحو أي تتويج مركزي.

- **شواهد من السيرة:** لقد تحَقَّقَ كسر حصار وحواجز المشركين في مكة أمام انطلاق الدعوة وتأثيرها من خلال فتح نوافذ الدعوة والعلاقة مع الآخر، إذ امتدت الجسور إلى الحبشة وغِفار وأسلم -المتحكمة بطريق تجارة اليمن- ودَوْس، ووصلت الطائف وبني النجار والأنصار، ثم تُوِّجت بالهجرة ووثيقة المدينة، فكان من أولى فسَحِها قطع طريق قوافل قريش، فباتت قريش تلهث في الفضاء المفتوح وليس العكس، وهو ما شكَّل حالةً من الديناميكية اللامركزية والتواصلية الخارجية حيث السعة في المواقع والوسائل والطاقات والتي سَعَت قريش جاهدةً إلى منعها منذ البداية كي تخنقَ حالة النهوض الرسالي وأسباب انتعاش كيانه وتُعطِّلَ مراكب عالميته.

- **مكائد وضيق المركزية:** نلاحظ اليوم بجلاء أنّ المكر العالمي حريصٌ على عدم خروج دعوة الإسلام من مركزيتها الجغرافية والمادية والمعنوية والإدارية، حتى يسهل عليه حشرها ومحاصرتها وقطع أسباب انتعاشها ومنع تنفسها من رئات أخرى، فاجتهد في تقطيع أوصالها وتواصلها مع أطرافها وأطراف العالم. إنّ المستكبرين يعلمون أنّ كياناتهم تهددها عالمية الرسالة بما تحمله من قوة الحق ونور الوحي وميثاق الفطرة وعدالة القضية وسمو القيم.

إذن، فلا بد من أن يشغلوا الأمة الإسلامية بصراعاتٍ داخليةٍ وكبتٍ وردود أفعال غلواء يستحثونها، فتبقى مشلولةً لا تكاد

تضمد جراحاتها، وبالتالي يتم إعاقة تمددها في مساحات قوتها الرسالية بهدف تعطيل حراكها المتسارع في نطاق المجتمعات الغربية والعالمية وفي خوائها الروحي وفراغاتها الحداثية، حيث سيجد الإسلام مددًا وأنصارًا وحلفاء.

- **من ثمار سعة اللامركزية:** صناعة أدوات جديدة للتغيير، وتفعيل وتحسين الموجود منها؛ وضخ الدماء الجديدة، لتتبادل المكونات الأدوار وتتنوع وتتطور في خدمة الأمة، وبالتالي سيصعب محاصرتها مركزيًا أو فشلها كلها. فمثلًا؛ لاحظنا ضرر وهدر تمحور الحركات الإسلامية الحسي حول قضية أفغانستان في الثمانينات. اللامركزية بهذا تسهم في تقليل هدر الطاقات وتعطيل الكفاءات، وتحيي انتماء أبناء الأمة.

- **نماذج لنجاعة حركة الأمة من الأطراف:** وفي القرنين الرابع والخامس وقعت مراكز العالم الإسلامي تحت سلطة القرامطة والبويهيين والفاطميين واهتزت الأندلس، لكن تحركت الأطراف تباعًا؛ فانقضّ عليهم السلاجقة والغزنويون ثم الزنكيون وصلاح الدين، فقشعوهم، أما المرابطون فقد سَمَت عصبيتهم إلى الإمارة من القواصي لتُحيي أمر الإسلام. وكذلك فعل الترك في الأناضول.

ويمكننا ملاحظة أنّ اللامركزية ظهرت أهميتها بجلاء في حقب استضعاف الأمة وهو ما يتماهى مع فقه المراغمة والسعة حيث تتبلور عصبيات تتحرك في الأطراف والفراغات.

جوانب من اللامركزية عند ابن خلدون وهوفمان:

- **ابن خلدون:** هو الأب الحقيقي لنظريات المركز والأطراف التى شغلت مختلف التخصصات العلمية، ونحن في حديثنا عن ديناميكية اللامركزية والأطراف ندور في فلك نظرية ابن خلدون في أهمية العصبية المادية -عصبة الناس- والعصبية

المعنوية -الفكرة والدين- وذلك لإحداث التحولات في الأمم، وهو مما نادى ابن خلدون بملاحظته من خلال الحركة في القواصي والأطراف حيث الفراغات المادية والمعنوية؛ إذ «يحدث الفراغ في الأطراف غالبًا... والأطراف مصطلحٌ خلدونى أصيل يعبر عنه في مكان آخر بالقاصية، وابن خلدون يعتبر أن الأطراف تقوم فيها العصبيات الجديدة بالتمدد نحو المركز...»[1].

وحتى يعمل الوصف السابق في تشكل عصبيات في الأطراف والفراغات، فعلينا أن ننفض عن الجهاد بدعة أدلجته والتي تجعله يصطدم بمكونات وعصبية الأمة ويشطرها... بينما لمٍ يتلبسٍ بهذا أهل السنة عبر التاريخ، فقد عاملوا الجهاد عبادة شريفة لها شروطها وفقهها كما هو حال الصلاة والزكاة.

- **مراد هوفمان:** يطرح هوفمان مفهومًا ديناميكيًا للأمة مسترشدًا بتاريخ الإسلام وطبيعة الرسالة ودلالة واقعنا، فهو يعتبر الأمة هي الثابت والأساس الناظم والمنطلق والمرجع، ولا يخضعها إلا لمركزية القرآن والرسالة... وكل ما عداها لا مركزي يصدر عن الأمة ثم يدور في فلكها ليخدم رسالتها في عالم الأسباب والوسائل والتنوع على امتداد الجغرافيا العالمية.

يعلق د. محمد السلومي على مفهوم الأمة: «فمن خلال بحثي في كُتبه وإعداد كتابٍ عن رؤاه بعنوان (مراد هوفمان - رؤيته في احتضار الغرب وصعود الإسلام)، وجدتُ أنه يطرح مفهوم الأمة على أساس أنها ميزة في الإسلام وأولوية وواجب على المسلمين، وذلك بالعمل على تحقيقها بالوعي وبالتربية والتعليم؛ حيث التحديات الكبيرة على الإسلام والمسلمين، وأهمية

(١) من حلقة أسمار وأفكار على اليوتيوب بعنوان: حالة الفراغ من ابن خلدون إلى واقعنا، د. كمال القصير، الدقيقة(١١)»، وينظر كذلك: مقدّمة ابن خلدون (٨٧٢/٣).

مواجهتها بالوسائل المشروعة والمتاحة، استجابةً لدينهم وحقًا مشروعًا لهم كحال الأمم الأخرى... ولعل هوفمان يرى أن المركز السياسي ليس شرطًا لحضور الإسلام في حياة المسلمين، وقد حدث هذا مرات عديدة في التاريخ دون خلافة»[١].

يقول هوفمان في هذا الصدد: «ليس هذا السؤال [عن المسلمين دون مركز سياسي] جديدًا؛ ففي عصر ابن تيمية كان على المسلمين أن يعلموا أن الإسلام يستطيع العيش من دون خليفة مشترك، ولكنه لا يستطيع العيش من دون الأمة. ما زالت وجهة النظر الحصيفة هذه قائمة؛ إذ من غير المحتمل أن يعترف المسلمون بمركز سياسي واحد، ولكنهم يعترفون بانتمائهم لأمة واحدة...»[٢].

> **علينا أن ننفض عن الجهاد بدعة أدلجته، والتي تجعله يصطدم بمكونات وعصبية الأمة ويشطرها... بينما لم يتلبس بهذا أهل السنة عبر التاريخ، فقد عاملوا الجهاد كعبادةٍ شريفةٍ لها شروطها وفقهها؛ كما هو حال الصلاة والزكاة**

النهضة ومسؤولية الدعاة بعيدًا عن الهدر:

إنّ التدافع الحضاري يمر اليوم بمنعطفات معرفية تثير أسئلةً فطريةً، ويقدم للإسلام فرصًا لملء الفراغات المعرفية والإجابة عن الأسئلة الوجودية والروحية الكبرى، لكن

(١) ورد في مقالة «الأمة أولًا.. قراءة في مفهوم الأمة والدولة عند هوفمان»، د. محمد السلومي، مجلة رواء، العدد (٢٠).
(٢) مستقبل الإسلام في الغرب والشرق، لهوفمان، ص (١٨٩).

مما نخشاه في خضم الدفع الإسلامي النهضوي والأعمال الإصلاحية هي الفوضى المعرفية في تصوراتنا وأعمالنا، وكذلك الحصريات والمركزيات في الجغرافيا والمسميات والشخوص والعلاقات والوسائل ثم التشعب في المشاريع وتخليط الأعمال والتخصصات، وسلق المسؤوليات وعمل المؤسسات، إذن فليأخذ التنظيم والتخصص والترشيد مكانه بصورةٍ عملية في مسيرة التدافع والمهنية والمسؤولية بعيدًا عن الهدر... كيف بنا ونحن المسلمين سادة المعرفة والتحولات برسالةٍ كونية إيمانيةٍ عظمى، أحرى بنا وأولى لنا.

قضايا معاصرة

الكرباج الوطني والأستاذ الأجنبي!

أ. محمد إلهامي

باحث في التاريخ والحضارة الإسلامية، ماجستير الاقتصاد الإسلامي، رئيس تحرير مجلة أنصار النبي ﷺ

رواء

العدد ٢٤ | جمادى الآخرة ١٤٤٥هـ - كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٣م

٤٠

الفهرس

الطغيان السياسي هو السوط الحارق الذي يستعمله العدو في ضرب الأمة وشلّ قدراتها وتكبيل طاقتها، ليس فقط بما يثيره من خوف ورعب وألم، بل بما يترتب عليه من آثار نفسية واجتماعية خطيرة تجعل الأمة في وضع لا يمكنها معه النهوض إلا بعد جهد كبير واستبدال تدريجي ومؤلم لأجيال تمكنت منها أمراض الطغيان حتى أفقدتها فطرتها وصلاحيتها، وقد وجد الأعداء أن «الكرباج الوطني» هو الأقل تكلفةً والأفضل نتيجةً في تحقيق مصالحهم!

لما دخل الاحتلال الإنجليزي إلى مصر نزل إليها اللورد دوفرين، السفير الإنجليزي في الآستانة، وقضى وقتًا، ثم كتب تقريرًا لبيان الطريقة المثلى للسيطرة على الشعب، فذكر فيه أنه «لا يمكن المحافظة على النظام في القطر المصري إلا بتأديب أهله بواسطة أستاذِين من الأجانب، وبالكرباج الوطني»[(١)]. وهذا هو التقرير الذي سارت عليه بريطانيا فعليًا في حكم مصر، فلم تُفرض الحماية البريطانية (أي الاحتلال الرسمي) على مصر إلا سبع سنوات (١٩١٤ – ١٩٢٢م) من بين سبعين سنة هي عمر الاحتلال الحقيقي في مصر. وفيما عدا ذلك كانت بريطانيا تزعم أنها موجودة في مصر بناء على طلب الحكومة المصرية لفترة مؤقتة وبغرض استتباب حكومة جناب الخديوي الذي لا شك في تبعيته للباب العالي العثماني. ولم يحتفظ الإنجليز في مصر سوى بثلاثة آلاف جندي إنجليزي فحسب! وما ذلك إلا لأنهم أحسنوا استعمال «الكرباج الوطني»!

ومنذ ذلك الوقت وجد الغرب أن هذا «الكرباج الوطني» أقل كلفة وأفضل نتيجة في تحقيق المصالح الأجنبية، وعن هذا الكرباج الوطني نتحدث في هذه السطور!

(١) ينظر نص التقرير وهذا الاقتباس منه في: مصر للمصريين، لسليم النقاش (٥٩/٦)، والكرباج هو السوط باللغة التركية « Kırbaç»، وهو آلة من جلد تستخدم للضرب.

(١)

وقع الخلاف بين علماء النفس والاجتماع، لا سيما الذين يبحثون في هذه المجالات من مدخل السياسة، فيما إذا كان الإنسان أقوى من الظروف، أو كانت الظروف أقوى من الإنسان، وانتهى الأمر إلى أنه بخلاف الشخصيات النادرة التي تتمتع بصلابة استثنائية، فإن الإنسان يساير الظروف ويساوقها، بل إن الظروف المحيطة به تستطيع أن تقلبه وأن تحوله من النقيض إلى النقيض! إن «وجهة النظر الغالبة في علم النفس الاجتماعي تؤكد أن الموقف الذي نواجهه (أينما نكون) يؤثر في سلوكنا تأثيرًا يفوق تأثير خصائصنا الشخصية في كثير من الأحيان، وإلى حد أكبر مما يمكننا تصوره»[١].

دلَّت على هذه النتيجة كثيرٌ من التجارب الاجتماعية المختلفة[٢]، منها مثلًا:

١. حاول سولومون آش، عالم النفس الاجتماعي المشهور، أن يقيس أثر الأفراد المحيطين على الشخص العاقل، أجرى تجربة يتعرض فيها المرء إلى أسئلة بسيطة وسهلة، فوجد أن الإجابة تبدو صحيحة في حال كونه منفردًا. وإذا وُضِع المرء ضمن بيئة تختار الإجابة الخاطئة -مهما كان خطؤها واضحًا- فإنه يتشكك بنفسه، ويختار طائعًا الإجابة الخاطئة، دون أن يتعرض في ذلك لأي ضغط مباشر، لا تصريحًا ولا تلميحًا ولا توصية ولا توجيهًا. لقد وقع ثلاثة أرباع الناس (٧٥٪) في الانسياق مع البيئة المحيطة، واختاروا الإجابة الخاطئة في أمر شديد الوضوح!

٢. ثم جاء تلميذه ستانلي مليجرام، فطوَّر تجربة يضيف فيها عنصر التوجيه، دون ضغط أو إكراه، فأجرى تجربة

(١) علم النفس السياسي، لديفيد باتريك هوتون، ص (٢٠).

(٢) في هذه التجارب وغيرها، يمكن مطالعة هذه الكتب: «طاعة السلطة» لستانلي مليجرام، «تأثير الشيطان» لفيليب زمباردو، «علم النفس السياسي» لديفيد باتريك هوتون.

يوضع فيها المرء أمام رجل كبير يعاني من صعوبة التعلم والنسيان، ويُقال له: نريد أن نجرب أثر العقوبة على تحسين الذاكرة وتحسين القدرة على التعلم. على المرء في هذه التجربة أن يعاقب هذا الرجل الكبير بصعقات كهربية كلما أخطأ، وإلى جواره طبيب مختص سيكون مسؤولاً عن صحة الرجل الكبير. كانت الكهرباء غير حقيقية، وكان الرجل الكبير جزءًا من التجربة، وكان الطبيب كذلك، وإنما كان الغرض أن يُختبر إلى أي مدى سيصل المرء في الصعق الكهربائي لهذا العجوز، طالما أن الطبيب يطمئنه أن لا خوف على صحته. توقع العلماء قبل التجربة أن الذين ستسمح لهم طبيعتهم بالوصول إلى درجة الصعق النهائية (٤٥٠ فولت) لن يزيد عن ٢٪. ثم فوجئ الجميع بعد التجربة بأن النسبة بلغت ٦٥٪! وهكذا ثبت أن ثلثي الناس الطبيعيين الأسوياء كذبوا أعينهم وآلام الشيخ الكبير الذي يتلوى أمامهم من الألم، لأن شخصًا يرتدي زي طبيب ما زال يطمئنهم أن بوسعهم الاستمرار في رفع درجة الصعق دون خطر على حياة هذا المسنّ! ونفس النسبة كانت حتى في النساء! هذه النتيجة فاجأت الجميع بأن التوجيه –غير الإجباري، والخالي من أي سلطة– يمكن أن يحول الناس الأسوياء إلى مجرمين وقتلة بغير مجهود كبير! طالما أنهم آمنون من المسؤولية وتحمل العواقب!

٣. ثم جاء فيليب زمباردو، فصنع تجربة أراد بها أن يزيد من حضور السلطة وسطوتها ليرصد تأثيرها على السلوك الإنساني، فاختار عددًا من طلاب الجامعة، كانوا أصدقاء، وكانوا أسوياء أيضًا، فقسَّمهم إلى فريقيْن: سجَّانين ومساجين، ارتدى الأولون ثياب الشرطة والآخرون ثياب المساجين، وصنع بيئة للسجن، ومع أن الجميع يدري أنها مجرد تجربة وتمثيل، فإنه سرعان ما انقلبت العلاقات،

ونشأت علاقات قوية بين فريق السجانين، وكذا بين فريق المساجين، وظهرت طبائع السادية على السجانين الذين منحوا سلطة كاملة على المساجين، وظهرت طبائع سلبية وانفعالية وانهيارات نفسية على المساجين، ومع أن العقوبات الجسدية كانت محظورة إلا أن بعض السجانين ارتكبها وتفننن في اختراعها، وقد استسلم لها بعض المساجين بالفعل! وتدهور الموقف سريعًا حتى اضطر زمباردو لإيقاف التجربة بعد ستة أيام وكان قد خطط لاستمرارها لأسبوعين!

ومن نظر في كتب علم النفس الاجتماعي والسياسي، وفي علم نفس المقهورين وجد أمورًا غزيرة من هذه المشاهد التي تستحق التوقف عندها طويلاً، والتى تثير كثيرًا من الأفكار والمـفاجآت، ولكن الذي نقصده في هذا المقال تحديدًا هو هذه النتائج:

- **أولاً:** البيئة المحيطة أكثر تأثيرًا في الناس من صفاتهم الذاتية والشخصية وقناعاتهم الخاصة.
- **ثانيًا:** من يملكون التوجيه الذي يُعفي من المسؤولية يستطيعون سَوق الناس إلى نتائج خطيرة!
- **ثالثًا:** يبلغ التأثير ذروته في حال السلطة التي تملك القهر والإجبار والعقاب على من لم يخضع لتوجيهاتها وأوامرها. كما يبلغ الاستسلام لها ذروته لدى المحكومين.

وهذه النتائج تدندن حولها الدراسات والبحوث المكتوبة في طبائع الاجتماع وعلم نفس الجماهير ونحوها.

«وجهة النظر الغالبة في علم النفس الاجتماعي تؤكد أن الموقف الذي نواجهه (أينما نكون) يؤثر في سلوكنا تأثيرًا يفوق تأثير خصائصنا الشخصية في كثير من الأحيان، وإلى حد أكبر مما يمكننا تصوره»

ديفيد باتريك هوتون

(٢)

قبل هذه التجارب بستة قرون، كتب ابن خلدون في مقدمته فصلاً بعنوان: المغلوب مولع بالاقتداء بالغالب! وضرب على ذلك المثل بما يكون لدى الناس من حب التشبه بالملوك والسلاطين، والتشبه بالأجناد والشُرَط، وذلك لكونهم الغالبين عليهم، وبما يكون لدى الولد الصغير من حبٍ التشبه بأبيه لكونه الغالب عليه، وجعل ذلك كله مصداقًا للمثل السائر الذائع: الناس على دين ملوكهم[١].

فإذا كان الملك طاغية جبارًا فإن الناس يتشربون هذا الخلق عنه فيمن لهم عليه ولاية وسيطرة، وهذا يفسر لماذا يبدو نفس الإنسان خاضعًا خانعًا لمن فوقه، طاغية متجبرًا على مَن تحته.. وساعتئذ تفسد أخلاق المغلوبين على سبيلَين؛ الأول: ما يتشربونه من أخلاق الطغيان على يد الطاغية الذي يحكمهم، والثاني: ما يلجؤون إليه من أخلاق الذلة ليتخلصوا من بطشه!

يقول ابن خلدون: «ليس كلٌّ أحد مالكَ أمرِ نفسه؛ إذ الرؤساء والأمراء المالكون لأمر الناس قليل بالنسبَة إلى غيرهم، فمِن الغالب أن يكون الإنسان في مَلَكَةِ[٢] غيره ولا بدّ، فإن كانت المَـلَكَة رفيقةً وعادلةً لا يُعانى منها حكم ولا منع وصدّ، كان

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون ص (١٨٤).

(٢) المقصود بالملكة: الحكم الذي يخضع له الناس.

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

النّاس مِن تحت يدها مُدِلِّين بما في أنفسهم مِن شجاعة أو جبن، واثقين بعدم الوازع، حتّى صار لهم الإدلال جبلّة لا يعرفون سواها. وأما إذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والإخافة فتكسر حينئذ مِن سَورة بأسهم وتذهب المنعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس المضطهدة... وأما إذا كانت الأحكام بالعقاب فمُذْهِبَةٌ للبأس بالكلّيّة، لأن وقوع العقاب به ولم يدافع عن نفسه يُكسبه المذلّة التي تكسر من سورة بأسه»[(١)].

وحين تنكسر العزة والبأس والثقة في نفس المرء فإنه يلجأ إلى أخلاق المقهورين، وفي هذا يقول ابن خلدون: «فإن المَلِكَ إذا كان قاهرًا باطشًا بالعقوبات مُنَقِّبًا عن عورات الناس وتعديد ذنوبهم، شملهم الخوف والذل ولاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة، فتَخَلَّقُوا بها وفسدت بصائرهم وأخلاقهم... وإذا كان رفيقًا بهم متجاوزًا عن سيئاتهم، استناموا إليه ولاذوا به وأشربوا محبّته، واستماتوا دونه في محاربة أعدائه فاستقام الأمر من كلّ جانب»[(٢)].

وهذه الأخلاق الذميمة تنتشر في سائر من نشأ على الذل والقهر، يقول: «من كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلّمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيّق عن النّفس في انبساطها وذهب بنشاطها، ودعاه إلى الكسل، وحَمَلَ على الكذب والخبث، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفًا من انبساط الأيدي بالقهر عليه، وعلّمه المكر والخديعة لذلك، وصارت له هذه عادة وخلقًا وفسدت معاني الإنسانيّة التي له... بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيّتها فارتكس وعاد في أسفل

(١) مقدمة ابن خلدون، ص (١٥٧).
(٢) مقدمة ابن خلدون، ص (٢٣٦).

السافلين، وهكذا وقع لكلّ أمّة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف»[(١)].

ولقد كان ابن خلدون يعبر بهذا عن خلاصة تاريخية لا تغيب عمن يطالع صفحاته، بل لقد اختلفت عبارات المؤرخين في التعبير عن المأساة العقلية والنفسية التي تصيب أمة ترزح تحت القهر والطغيان.

> **إذا كان الملك طاغية جبارًا فإن الناس يتشرّبون هذا الخلق عنه فيمن لهم عليه ولاية وسيطرة، وهذا يفسر لماذا يبدو نفس الإنسان خاضعًا خانعًا لمن فوقه، طاغية متجبرًا على مَن تحته، وساعتئذ تفسد أخلاق المغلوبين على سبيلَين؛ الأول: ما يتشربونه من أخلاق الطغيان على يد الطاغية الذي يحكمهم، والثاني: ما يلجؤون إليه من أخلاق الذلة ليتخلصوا من بطشه!**

(٣)

وما كان ابن خلدون متفردًا بالإشارة إلى هذه الآثار العظيمة والخطيرة للسلطة على الناس، بل هذا غزير متناثر في كلام الأئمة والعلماء قبله من الفقهاء والمفسرين والمحدثين والمؤرخين، وله أصول تمتد حتى الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين.

فقد سُئل أبو بكر ﷺ: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال بقاؤكم عليه ما استقامت

(١) مقدمة ابن خلدون، ص (٧٤٣).

بكم أئمتكم»[١]. وقال عمر لزياد بن حدير: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قال: قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين»[٢]. وأرسل عمر لأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما يقول: «إياك أن ترتع فيرتع عمالك»[٣].

وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن»[٤].

وروي عن غير واحد من السلف الصالح قولهم: لو كانت لي دعوة صالحة لجعلتها للسلطان، إذ بصلاحه صلاحُ الرعية، وبفساده فسادُهم[٥]، وشبهوه بعين الماء التي إن فسدت فسد سائر النهر[٦].

وقال الغزالي: «قالت الحكماء: إن طباع الرعية نتيجة طباع الملوك... فإنهم يتعلمون منهم ويلزمون طباعهم»[٧]، وقال ابن جماعة: «الناس على دين الملك، فإذا عدل لزمت الرعيةُ العدلَ وقوانينه، فانتعش الحق، وتناصف الناس، وذهب الجور، فترسل السماء بركاتها، وتخرج الأرض نباتها، وتكثر الخيرات وتنمو التجارات»[٨].

---

(١) أخرجه البخارى (٣٨٣٤).

(٢) أخرجه الدارمي (٢١٤).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٣٤٤٤٨)، بإسناد صحيح؛ من طريق سعيد بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، وهو لم يلق عمر ولا لقي جده أبا موسى، إلا أنه صحيح لأن رسالة عمر لجده كانت عند أبيه، وورثها عنه ورواه منها، (ينظر: المعرفة والتاريخ، للفسوي: ٣٣٤/٢).

(٤) روي بألفاظ مختلفة وقريبة عن عثمان، وهو الأشهر، وعن عمر بن الخطاب، ينظر: تاريخ المدينة، لابن شبة (٩٨٨/٣)، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي (١٧٢/٥)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤١٦/١١).

(٥) السنن الكبرى، للبيهقي (١٦٤٢٩)، وحلية الأولياء، لأبي نعيم (٩١/٨)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٣٩١/٢٨).

(٦) حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٢٦/٢)، (٣٢٢/٧).

(٧) التبر المسبوك في نصيحة الملوك، للغزالي، ص (٥٠).

(٨) تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، لابن جماعة، ص (٥٠).

قال ابن جماعة: «الناس على دين الملك، فإذا عدل لزمت الرعيةُ العدلَ وقوانينه، فانتعش الحق، وتناصف الناس، وذهب الجور، فترسل السماء بركاتها، وتخرج الأرض نباتها، وتكثر الخيرات وتنمو التجارات»

وألَّف اليعقوبي المؤرخ كتابه «مشاكلة الناس لزمانهم» لهذا المعنى، فراح يذكر الصفة الغالبة على الخليفة وكيف تشيع في الناس، وقال ابن الطقطقي: «اعلم أنّ للملك أمورًا تخصّه يتميّز بها عن السوقة؛ فمنها: أنه إذا أحبّ شيئًا أحبه الناس، وإذا أبغض شيئًا أبغضه الناس، وإذا لهج بشيء لهج به الناس إمّا طبعًا أو تطبُّعًا»(١). وقال ابن كثير: «كانت همة الوليد في البناء، وكان الناس كذلك؛ يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول: ماذا بنيت؟ ماذا عمرت؟ وكانت همة أخيه سليمان في النساء، فكان الناس كذلك؛ يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول: كم تزوجت؟ ماذا عندك من السراري؟ وكانت همة عمر بن عبد العزيز في قراءة القرآن، وفي الصلاة والعبادة، فكان الناس كذلك؛ يلقى الرجلُ الرجلَ فيقول: كم وردك؟ كم تقرأ كل يوم؟ ماذا صليت البارحة؟ والناس يقولون: الناس على دين مليكهم، إن كان خمّارًا كَثُرَ الخمر، وإن كان لوطيًا فكذلك، وإن كان شحيحًا حريصًا كان الناس كذلك، وإن كان جوادًا كريمًا شجاعًا كان الناس كذلك، وإن كان طمّاعًا ظلومًا غشومًا فكذلك، وإن كان ذا دين وتقوى وبر وإحسان كان الناس كذلك»(٢). وقال ابن حجر: «الناس على دين ملوكهم؛ فمن حاد من الأئمة عن الحال مال وأمال»(٣). وغيرهم كثير.

(١) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، لابن الطقطقي، ص (٣٢).
(٢) البداية والنهاية، لابن كثير (١٨٦/٩).
(٣) فتح الباري، لابن حجر (١٥١/٧).

(٤)

لو أن أمتنا أمة غالبة الآن لكان الأجدر بنا والأولى لنا أن نبدأ في أي موضوع بالحديث عما في القرآن والسنة، ثم تراث سلفنا الصالح، ولكننا أمة مغلوبة، وهذا أورث كثيرًا من الناس إقبالاً على أقوال الأجانب وكلامهم، فلهذا بدأنا به، وقد حان الوقت أن نرجع فنذكر أن أصول هذه العلوم كلها، وأن القول المهيمن على الأقوال كلها هو ما جاء في القرآن الكريم. إلا أننا لما نشأنا مبتعدين عنه، ولما قلَّ في زماننا المتأملون والمتفكرون فيه، صرنا نمرّ على الآيات غافلين عما فيها من المعاني والعلوم، مع أنها وحدها تكفي وتشفي وتهدي.

لقد ضرب الله لنا مثلاً بأمة اخترقها الذل وانطبع فيها القهر، وفسدت حتى صدر عنها من الأخلاق السافلة والمواقف العجيبة ما يدهش العقول، تلك هي أمة بني إسرائيل. وإن الوقوف على قصة بني إسرائيل ليكشف لنا كيف يصنع الطغيان بالنفوس، لا سيما إذا طال عليهم العهد.

تظهر أول أمراض بني إسرائيل في هذا العجز المُقْعِد الفتاك، حيث كان فرعون يأمر بقتل أبنائهم، فيُقتلون أمامهم مع عجزهم عن المدافعة والمقاومة، وقد استمر فيهم هذا سنين كثيرة، فقد وُلِد موسى عليه السلام في زمن قتل وذبح ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، وبعدما بُعث نبيًا -أي بعد أكثر من أربعين سنة- عاود فرعون سياسته ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وحين ظهر فيهم النبي المنقذ المخلص لم يرحبوا به، بل تشاءموا وتشكَّوا أن حياتهم لم تنصلح ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ

تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩]، ولم يؤمنوا به، قال تعالى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس: ٨٣].

ولما نجَّاهم الله بالمعجزة الهائلة الرهيبة، وأهلك فرعون أمام أعينهم، لم يتخلَّصوا من آثار الفرعونية القاهرة التي سحقت نفوسهم، بل ظلت تلك الصفات كامنة فيهم، تخرج عند أدنى اختبار، وسنرى أن سائر الخطايا التي وقعت منهم ترجع وترتد إلى أمر واحد؛ لقد وجدوا القوة القاهرة التي تبطش بهم، فنراهم إذا أمنوا غدروا، وإذا خافوا استقاموا.

١. لم يستطع بنو إسرائيل أن يتصوروا الحياة بدون قاهر عليهم يرونه ويحسون وجوده، فالتمسوا إلهًا حاضرًا متجسدًا قائمًا أمامهم، ولهذا فما إن مرُّوا على قوم يعبدون الأوثان حتى صاحوا بموسى ﴿يَامُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

٢. كان نبي الله موسى قويًا، ولما غاب عنهم في رحلة تلقي التوراة استضعفوا نبي الله هارون، وكادوا يقتلونه، ﴿قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

٣. ولكن.. لماذا أرادوا قتل هارون؟ ما كان ذلك إلا لأنهم أرادوا إلهًا متجسدًا أمامهم من جديد، وقد انتهز السامري فرصة غياب موسى فصنع لهم عجلاً من ذهب، فأقبلوا عليه يعبدونه! ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨].

٤. فلما عاد نبي الله موسى، القوي الجسد، عادوا وراجعوا الطاعة، ونسف إلههم أمامهم، ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ

قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

٥. وظهر إيمان بني إسرائيل بما أمامهم من المادة والأسباب وكفرهم بما وراء الأسباب في أنهم خافوا انقطاع الطعام الذي يتنزل إليهم من السماء: المن والسلوى، فالتمسوا الزرع الذي يقومون عليه فيخرج لهم من الأرض، ﴿يَامُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١].

٦. ولم يعتدل أمرهم إلا حين أوقعهم الله تحت تهديد مادي محسوس ومرئي، وذلك لما رفع الله فوقهم جبل الطور على هيئة التهديد لهم، ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٧١].

٧. وظهر هذا الإيمان بالأمور المادية المحسوسة، والكفران بالغيب حين حثهم موسى على الجهاد، فارتعبوا وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا﴾ [المائدة: ٢٢]، ولما ذُكِّروا بالله وقوته وقدرته، وأن الله قد وعدهم بالنصر إذا هم جاهدوا، لم يؤثر هذا فيهم شيئًا، بل قالوا هذه الكلمة الصارخة المعبرة عن حقيقة نفوسهم: ﴿يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

٨. وأشدُّ وأظهر ما عبَّر عن نفسية بني إسرائيل التي اعتادت الخوف من الطاغية القائم أمام أبصارهم، والذي يشعرون بحضوره وهيمنته، هو قولهم: ﴿يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥].

دور الطغيان في إفساد الأمة وتشويه إرادة الشعب

ولقد مدَّ الله لهم في الفرصة بعد الفرصة، وفي العفو بعد العفو، ثم ما كان لهم إلا عقوبة الاستبدال، قال تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].

يقول ابن خلدون: «وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد وما رئموا من الذل للقبط أحقابًا حتّى ذهبت العصبيّة منهم جملة، مع أنّهم لم يؤمنوا حقّ الإيمان بما أخبرهم به موسى من أنّ الشّام لهم وأنّ العمالقة الذين كانوا بأريحا فريستهم بحكم من الله قدّره لهم، فأقصروا عن ذلك، وعجزوا تعويلاً على ما في أنفسهم من العجز عن المطالبة، لما حصل لهم من خلق المذلّة، وطعنوا فيما أخبرهم به نبيّهم من ذلك وما أمرهم به، فعاقبهم الله بالتّيه وهو أنّهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشّام ومصر أربعين سنة، لم يأووا فيها لِعمران، ولا نزلوا مصرًا، ولا خالطوا بشرًا... حكمة ذلك التّيه مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل والقهر والقوة، وتخلقوا

به، وأفسدوا من عصبيّتهم حتى نشأ في ذلك التّيه جيل آخر عزيز لا يعرف الأحكام والقهر، ولا يُسام بالمذلة»[(١)].

وهكذا نرى أن الطغيان أفسد الجيل الذي تهيأت له كل الفرص الممكنة للإنقاذ: ظلم شنيع قاهر طويل، وقائد منقذ هو نبي من أولي العزم من الرسل، أي أنه من أفضل خمسة بشر خُلقوا في التاريخ ومعه نبي آخر يعضده هو هارون عليه السلام، ومعية ربانية رأوا معجزاتها الكبرى بأعينهم حين نجوا وهلك فرعون. فما كان له إلا الاستبدال، فأما الجيل الذي جاء بالفتح ودخل الأرض المباركة وقاتل الجبارين، فإنه الجيل الذي نشأ في التيه، في البادية، رغم أنه لم يذق ظلم الفرعون، ولم ير المعجزات الهائلة، وكان قائده نبيًا واحدًا ليس بدرجة الرسولَين: موسى وهارون[(٢)]!

إن الطغيان أفسد جيل بني إسرائيل الذي تهيأت له كل الفرص الممكنة للإنقاذ: ظلم شنيع قاهر طويل، وقائد منقذ هو نبي من أولي العزم من الرسل، ومعية ربانية رأوا معجزاتها الكبرى بأعينهم حين نجوا وهلك فرعون. فما كان له إلا الاستبدال، ولم يكن الفتح على يديه!

(١) مقدمة ابن خلدون، ص (١/١٧٧)، وقوله: رئموا: أي اعتادوا وأَلِفوا.

(٢) نحن لا نفرق بين أنبياء الله، ولكن نشير هنا إلى أن الكمال الذي تمتع به موسى ومعه هارون، لم يكن مثمرًا مع الجيل الذي أهلكه الذل، حتى قال: {رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [المائدة: ٢٥]، مثلما أثمر جهد نبي الله يوشع بن نون مع الجيل التالي، وما ذلك إلا لقابلية المحل، بتعبير أهل التربية.

(٥)

إذا استوعبنا ما سبق، فلن يكون غريبًا ولا عجيبًا أن نرى أعداءنا المحتلين أحرص الناس على استبقائنا في الذل والقهر، وهم لذلك أحرص الناس على تنصيب الأنظمة الطغيانية وعلى حماية الطغاة ودعمهم وإسنادهم، بالأموال والخبرات والرجال، ثم تنزل جيوشهم بنفسها لحماية هذه الأنظمة ضد الثورات التي توشك على خلعها وإزالتها.

وقد اخترعوا من المصطلحات ما يعينهم على ترويج أفكارهم، فالدولة التي لا تستطيع السيطرة التامة على شعبها يسمونها «دولة فاشلة»، ومن هنا فلا بد من التدخل لبنائها على النحو الذي يجعلها دولة طغيانية، أو -بمصطلحهم- «دولة ناجحة»، وهذه بعض أقوال قادتهم في هذا:

> « قالت كونداليزا رايس التي شغلت منصبي مستشارة الأمن القومي ووزيرة الخارجية الأمريكية: «الدول الضعيفة والفاشلة تشكل تهديدًا أمنيًا خطيرًا على الولايات المتحدة. فهي لا تستطيع السيطرة على حدودها، وقد تصبح الملاذ الآمن للإرهابيين، لذلك فإن إعادة بنائها يشكل مهمة ضخمة وهامة في آن»[١].

> « قال هنري كيسنجر، مستشار الأمن القومي الأمريكي وأحد أبرز الشخصيات السياسية الأمريكية: «عندما لا تكون الدول محكومة بكليتها، يبدأ النظام الدولي أو الإقليمي نفسه بالتفكك. فضاءات خالية موحية باللاقانون تطغى على أجزاء من الخريطة. من شأن انهيار أي دولة أن تقلب أرضها إلى قاعدة للإرهاب»[٢].

(١) أسمى مراتب الشرف، لكونداليزا رايس، ص (١٣٩).
(٢) النظام العالمي، لهنري كيسنجر، ص (١٤٦).

ومهما طالت متاجرة هؤلاء الأجانب بالحريات والحقوق والعدالة والقوانين، فإنما هذا كله أصنام الجاهلية المعاصرة، وهي الأصنام المأكولة إذا عارضت مصلحة الأجانب وعملائهم. ولا يجد القوم حرجًا في الاعتراف بهذا والتصريح به، ولولا أن المـــقام هنا ليس مقام الحديث عن الطغيان السياسي لذكرنا طرفًا من ذلك، ولكن المقصود هنا: أن هذا الطغيان السياسي هو السوط الحارق الكاوي الذي يستعمله العدو في ضرب الأمة وشلّ قدراتها وتكبيل طاقتها، ليس فقط بما يثيره من خوف ورعب وألم، بل بما يترتب على هذا الخوف والرعب والألم من آثار نفسية واجتماعية خطيرة وفارقة تجعل الأمة في وضع لا يمكنها معه النهوض ولو تغيرت الظروف أو ظهر القادة المخلصون، إلا بعد جهد كبير وعنيف واستبدال تدريجي ومؤلم لأجيال تمكنت منها أمراض الطغيان حتى أفقدتها فطرتها وصلاحيتها.

> **نرى أن أعداءنا المحتلين أحرص الناس على استبقائنا في الذل والقهر، وهم لذلك أحرص الناس على تنصيب الأنظمة الطغيانية وعلى حماية الطغاة ودعمهم وإسنادهم، بالأموال والخبرات والرجال، ثم تنزل جيوشهم بنفسها لحماية هذه الأنظمة ضد الثورات التي توشك على خلعها وإزالتها**

ولو عدنا إلى المثال الذي ابتدأنا به المقال، لوجدنا أن الاحتلال الإنجليزي لمصر إنما نزل دفاعًا عن الحكومة المصرية، الحكومة التي كانت تمثل نموذج الاحتلال بالوكالة، أو نموذج «المستعمرة بدون استعمار»، فاستطاعت أن تقيم هذه الحكومة وأن

تستعملها لا في المكاسب السياسية والعسكرية فحسب، بل في ترسيخ ونشر المفاسد الاجتماعية والأخلاقية!

ربما يعرف الكثيرون أن الإنجليز استفادوا من مصر: جيشها وجنودها وشرطتها ورجالها ومواردها واقتصادها في حرب العثمانيين وفي احتلال السودان وفي هزيمة السنوسيين وفي احتلال بيت المقدس، ولكن الجانب المغفول عنه ما نشأ في ظل هذا الاحتلال من انتشار للزنا والمخدرات والخمور والربا والإلحاد والولاء للأجانب بالعاطفة والفكر والأخلاق فوق الولاء لهم بغرض المصلحة والمكاسب العاجلة! حتى نشأت طبقات اجتماعية عريضة مشوهة العقل والانتماء والغاية والوسيلة. ولئن كان الإنجليز قد رحلوا قبل سبعين سنة، فما يزال هذا الميراث الذي تركوه لم يرحل بعد!

إن الكرباج الوطني القاهر لا يقل خطورة أبدًا عن الاحتلال الأجنبي الكافر!

تشويه الدولة الأموية، ومرافعة الباحث الأمريكي ستيفن عنها

د. محمد بن عبد الله السلومي

باحث في الدراسات التاريخية ودراسات العمل الخيري والقطاع الثالث

للفِرَق الضالة -من الباطنية والرافضة- دور رئيس في تشويه حكم معاوية ﷺ والدولة الأموية خصوصًا والتاريخ الإسلامي عمومًا؛ بإضافة الكذب والتدليس في المرويات التاريخية، ولا غرابة أن ينبري علماء الإسلام قديمًا وحديثًا بالكتابة المتخصصة عن هذه الفرق الباطنية، فضلاً عن معظم علماء الأمة باستبانة سبل المجرمين وخطرهم الظاهر والكامن، لكن اللافت دفاع أحد الباحثين الغربيين عن هذه الدولة ومؤسسها، كما يتضح ذلك من هذا المقال

مدخل:

يرى بعض الباحثين من المعاصرين أن فئة من المؤرخين ممن كَتَبَ في تشويه حكم معاوية والدولة الأموية، كُتِبَت مؤلفاتهم في ظل الخلافة العباسية المناوئة لبنى أمية، ولكي يُرضُوها فإنهم كتبوا يذمون الأمويين ويقسون عليهم؛ لأنهم كانوا الأعداء التقليديين للعباسيين! والحقيقة التي يؤكدها التاريخ أن تأثير الفِرَق الضالة من الفرق الباطنية الرافضة كان له دور رئيس، كما كان له الأثر السلبي في محاولات تشويه عقيدة الأمة بمنهج خير القرون، فهم كذلك كانوا من رواة التزوير للأحاديث النبوية وإضافة الكذب والتدليس في المرويات التاريخية، وكان لهم إسهام كبير في تشويه عموم التاريخ الإسلامي ودوله، ولم تسلم دولة بني العبَاس (العباسية) كذلك من التشويه في تاريخها، لا سيما مع ضَعف بعض خلفاء بني العباس وتسلط وزراء من الرافضة، كبني بُوَيه (٣٣٤-٤٥٤هـ) وغيرهم من أربابِ العقائد المنحرفة. ومن يطلع على بعض المؤلفات التي تولَّت هذا التشويه أو تأثرت به، يجد ويدرك بصورة واضحة حقيقة مؤلفي معظم تلك الكتب[1].

(١) ينظر: مقال (أدوار الفرق المنحرفة في تشويه التاريخ الإسلامي) في العدد الثالث والعشرين.

وقد تجاوزت أدوار الفرق الباطنية الرافضة التي تتستر بالتشيُّع ومسمى الشيعة إلى ما هو أكبر من تشويه التاريخ؛ حيث محاولات تشويه الدين وعقيدته، ومن بلَّغوه إلى الأمة، وهم صحابة رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، وقد أثبت التاريخ أن لهم في معظم فتنه دورًا بارزًا، فهم وراء الفتن زمن الدولة الأموية والدولة العباسية، وقد كانوا سندًا كبيرًا للتتار المغول عند غزو بلاد الإسلام عام ٦٥٦هـ، كما أنهم أعوان وأنصار للصليبيين في معظم حملاتهم على العالم الإسلامي (٤٩٠-٦٩٠هـ/١٠٩٦-١٢٩١م) حوالي قرنين من الزمان، وقد علَّق شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- على هذا بقوله: «فلينظر كل عاقل فيما يحدُث في زمانه، وما يقرب من زمانه من الفتن والشرور والفساد في الإسلام، فإنه يجد معظم ذلك من قبل الرافضة..»[(١)].

ويقول رشيد رضا -رحمه الله- عن هذا الداء العضال الذي بُليت به أمة الإسلام في ماضيها وحاضرها: «وإنني أعتقد منذ عَقَلتُ أن دسائس المجوس هي التي فرَّقت كلمة سلفنا، ودسائس الإفرنج هي التي فرقت كلمة مسلمي عصرنا»[(٢)].

بل إن المؤرخ المستشرق الأمريكي وِل ديورانت يقول عن هؤلاء الرافضة تعليقًا على مقتل الوزير السني (نظام الملك) في أصبهان عام ٤٨٥هـ: «وكان هذا القاتل عضوًا في طائفة من أعجب الطوائف في التاريخ.. وكان نظام الملك قد اتهم هذه الطائفة في كتابه (سياسة نامة) بأن زعماءها من نسل المـزدكية الشيعية أهل فارس الساسانية»[(٣)]، وعن هذه الفتن

(١) منهاج السنة، لابن تيمية (٢٤٣/٣).
(٢) رشيد رضا أو إخاء أربعين سنة، لشكيب أرسلان، ص (٣١٦).
(٣) قصة الحضارة، لوِل ديورانت (٣١٦/١٣-٣١٧).

وأثرها في تشويه التاريخ الإسلامي يمكن الرجوع إلى مقالات متعددة كأنموذج[١].

وقد جاءت بعض الكُتب الجديدة والمعاصرة بالإسهام في تشويه التاريخ الإسلامي من أمثال كتابات فرهاد دفتري Farhad Daftary، ومصطفى غالب، وعارف تامر، ومحمود إسماعيل، وأسعد علي، وجورجي زيدان، وغيرهم كثير. ولا غرابة أن ينبري علماء الإسلام قديمًا وحديثًا بالكتابة المتخصصة عن هذه الفرق الباطنية، فضلاً عن معظم علماء الأمة باستبانة سبل المجرمين وخطرهم الظاهر والكامن[٢].

> **فئة من المؤرخين ممن كَتَبَ في تشويه حكم معاوية والدولة الأموية، كُتِبَت مؤلفاتهم في ظل الخلافة العباسية المناوئة لبني أمية، ولكي يُرضُوها فإنهم كتبوا يذمون الأمويين ويقسون عليهم؛ لأنهم كانوا الأعداء التقليديين للعباسيين! كما أن تأثير الفِرَق الضالة من الفرق الباطنية الرافضة كان له دور رئيس في الكذب والتدليس في المرويات التاريخية، وإسهام كبير في تشويه عموم التاريخ الإسلامي ودوله**

(١) ينظر المقالات: محمد العبدة، مقال بعنوان: (فتن الباطنية وأثرها في التاريخ الإسلامي - مقتل عمر)، موقع المسلم، بتاريخ ٢٦ شعبان ١٤٣٣هـ: محمد أمحزون، مقال بعنوان: (الفرق الباطنية: المنهاج والتاريخ)، مجلة البيان، العدد٢٧٧، بتاريخ ١ ذي الحجة ١٤٣١هـ.

(٢) ينظر على سبيل المثال من قدماء المؤرخين محمد الشهرستاني: الملل والنحل، وابن حزم: الفِصَل في الملل والأهواء والنحل، ومن المتأخرين محمد أحمد الخطيب: الحركات الباطنية في العالم الإسلام، وينظر: رسائل الدكتور سليمان السلومي الماجستير (القرامطة وآراؤهم الاعتقادية) والدكتوراه (أصول الإسماعيلية - دراسة وتحليل ونقد).

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

مرافعة علمية:

من الواضح أن هذه الاعتبارات السابقة من محاولات التشويه ومن الشبهات المُثارة على الدولة الأموية وعلى معاوية بن أبي سفيان الأموي رضي الله عنهما مما استثار واستفز المؤرخ والباحث الأمريكى ستيفن همفريز فكَتَبَ عن الدولة الأموية وإيجابياتها وأفضالها على أمة الإسلام من خلال مؤسسها معاوية في كتابه (من الجزيرة العربية إلى تشكيل الإمبراطورية: معاوية بن أبي سفيان)[1]، وبالرغم من أن الكتاب ربما يُعدُّ مرافعة أو مدافعة علمية عن معاوية رضي الله عنه والدولة الأموية، إلا أن الكتاب لم يخلُ من هنات أو سقطات علمية متعددة، وهو الأمر المعتاد في كتابات المستشرقين والمؤرخين الغربيين المنصفين؛ نظرًا لعدم الإلمام باللغة العربية وأسرارها، ولعدم القدرة على استكمال أدوات البحث العلمي المعمول بها لدى المسلمين، ومع هذا فقد كتب عمَّا يَدحض كثيرًا من الشبهات المثارة على معاوية ودولته الأموية السُنِّية من هذه الفِرَق المنحرفة التي أساءت لتاريخ أمة الإسلام، وهي مرافعةٌ تستحق أن تُقرأ قراءة فاحصة، ومن ذلك قوله: «لولا معاوية لاستطاع ابن سبأ السيطرة على دولة المسلمين وتمزيق دينهم، مثلما فعل بولس مع النصرانية، ولولا معاوية لما استمرت دولة العرب ودينهم ولغتهم»، ومع صحة هذا القول بعمومه، إلا أن هناك مبالغة من ستيفن عن دور ابن سبأ فيما يتعلق بالدين! وقد نجح ابن سبأ -إلى حدٍّ كبير- في نشر الفتنة بين المسلمين، لكن دوره لا يمكن أن يتجاوز إلى القدرة على تمزيق الدين الذي تكفَّل الله بحفظه!

---

(١) ينظر كتاب: (معاوية بن أبي سفيان: من الجزيرة العربية إلى تشكيل الإمبراطورية)، من تأليف: ستيفن همفريز، الناشر: وان وورلد بوبليكيشين بنيويورك عام ٢٠٠٦م، بعدد صفحات ١٤٥ صفحة من القطع الكبير، وتُرجم الكتاب إلى العربية في المركز الأكاديمي للأبحاث ببغداد عام ٢٠٢٢م، ترجمة هشام شامية، بعدد صفحات ٢٠٨ صفحة، وقد تم سحب الكتاب من معرض العراق الدولي للكتاب عام ٢٠٢٢م حسب تغريدة لمترجم الكتاب،

ومما ورد في كتاب ستيفن عن معاوية ﷺ أنه أعاد لعموم الخلافة الإسلامية هيبتها، ووحَّد الدولة الإسلامية بعد أن كانت قد تعرضت لبعض الانشقاقات العديدة، وضَعُفَت هيبة وحدة أمة الإسلام بسبب بعض الفتن والانشقاقات، فانقسام الأمة كان فتنة لها مما يُشكِّل مخاطر عليها، وعلى وجودها المؤثر والقوي في الأقاليم والبلدان.

ومما قال ستيفن مندهشًا من ضعف الاهتمام بتاريخ معاوية، وذلك في مقدمة كتابه: «يُعدّ معاوية بن أبي سفيان شخصيّة ذات أهمية حاسمة في المرحلة التكوينية للخلافة والإمبراطورية العربية الإسلامية، لكن حتى في طوفان الدراسات التي تناولت القرن الإسلامي الأول؛ لم يحظ معاوية باهتمام يُذكر على نحو يدعو إلى الدهشة!»[(١)]، ومما قال عنه كذلك وعن كتابه: «آمل أن يساعد هذا الكتاب في تجديد الاهتمام بهذا الرجل الرائع، لكنه ليس كتابًا للمختصين الإسلاميين الأول، بل هو موجَّه للقراء الذين بدؤوا للتو في الانخراط في دراسة التاريخ الإسلامي، سواء أكانوا من المسلمين في المهجر الذين يرغبون في معرفة المزيد عن تراثهم التاريخي، أم من العلماء والمعلمين الذين يعملون في المجالات ذات الصلة»[(٢)].

ومما دوَّن هذا الباحث: ما نقله عن بعض المؤرخين المسلمين القدامى بعدم اعتبار الأمويين خلفاء ووصفِهم بالملوك، أي أخذوا الحكم عن طريق الغلبة أو القوة المحضة والوراثة فيما بعد، وأقول إذا كانت هذه مَثلبةً وقَدحًا فهي مما يضيع في

---

(١) ينظر: معاوية بن أبي سفيان: من الجزيرة العربية إلى تشكيل الإمبراطورية، ص (٧).

(٢) ينظر: المرجع السابق، ص (٨). ويلحظ أن ستيفن قال: إن معاوية لم يحظ باهتمام يذكر في الكتابة عنه في القرن الإسلامي الأول! فربما أنه أراد الكتابات المنفردة عنه آنذاك، علمًا أن كتب التاريخ ومصادره القديمة لم تكن تنتهج هذا المنهج بإفراد الخلفاء بكتب مستقلة، بل كانت السرديات للتاريخ الحولي وما فيها من الروايات المتداخلة عن الأحداث والأشخاص، وربما أن ستيفن لم يجد في الكتب المترجمة للغة الإنجليزية من كُتب العصور الأولى من أفرده بترجمة خاصة، والله أعلم.

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

بحر مناقب وحسنات دولة بني أمية، وذلك بالنظر إلى الكُليات الكبيرة دون الجزئيات، كيف وقد تمت البداية بتدوين السُنَّة النبوية زمن عمر بن عبد العزيز رحمه الله! كما كانت بداية نهضة علوم الإسلام المتنوعة، إضافة إلى الفتوحات الإسلامية التي أكملت فتوحات الراشدين، وأبقت معظم البلاد المفتوحة دولاً إسلامية! وكفى أنها دولة سُنية تجاوزت بصورة كبيرة مكائد ودسائس فِرَق الضلال، ولم تقع بأيدي الرافضة، كما كان من نفوذ دولة بَني بُوَيه (٣٣٤-٤٥٤هـ) زمن الدولة العباسية، وكما حدث في قيام الدولة العُبيدية الفاطمية (٢٩٦-٥٦٧هـ) بصفةٍ مستقلة مُنشقة عن الدولة العباسية وفي زمنها.

ومما ذكره الباحث ستيفن: أن حكم معاوية بن أبي سفيان ﵁ كان لمدة عشرين سنة تقريبًا، وقد كانت كافية لتأسيس كيان دولة بإصلاحات سياسية مُعزِّزةٍ للبقاء والقوة، مع ترسيخ عَصَبية العائلة الأموية في الحُكم لضمان القوة والبقاء، كما أن عهد معاوية كان إكمالاً للفتوحات الإسلامية والمحافظة على البلاد المفتوحة مثل مصر ومعظم مناطق إيران حسب تعبير الباحث ستيفن. وبالتالي فما بقي على معاوية بن أبي سفيان إلا أن يُقوِّي من سُلطته وإصلاحاته على هذه الدولة الواسعة المترامية الأطراف الموصوفة بالإمبراطورية. ولم يكن من السهل على معاوية ومن بعده أن يحكموها كلها بإدارة مركزية واحدة، ثم لتكون من ثمراتها اليانعة الكبرى ميلاد دولة أخرى للمسلمين في بلاد الأندلس وحضارتهم بأوروبا على مدى ثمانية قرون تقريبًا (١٣١-٨٩٧هـ).

ومما أورده الباحث ستيفن حول حضارية الدولة الأموية؛ وجود الصور الكثيرة من التحديث والتجديد في وسائل إدارة الدولة الأموية، حينما استفاد معاوية ﵁ من أساليب البيزنطيين الذين حكموا بلاد الشام آنذاك في التنظيم الإداري، وجبي الضرائب، وتوزيع الأراضي، إلخ. وهنا تكمن عبقرية

معاوية ومهارته في تنظيم شؤون الحكم، بل إن هذا الباحث الغربي يؤكد مجالات التحديث والتجديد في الإدارة السياسية والعسكرية والاقتصادية لدى مِعاوية، حينما استفاد من خبرة رجال الدولة البيزنطية، واستخدم بعضهم في تسيير شؤون الإدارة، على الرغم من أنهم ليسوا مسلمين، وبرهن بذلك على انفتاح عقلي وديني أيضًا مع الآخرين من الأقليات غير المسلمة كما هو قول ستيفن.

وقد أشاد هذا الباحث بدور معاوية في تأسيس ركيزة أساسية في الانتماء الثقافي للدولة، وهي اللغة العربية التي أصبحت لأول مرة لغة الإدارة الرسمية للدولة، واضطر بعض الموظفين من غير العرب إلى تعلمها وإتقانها، بل ابتدأت الترجمات العلمية والطبية والفلسفية من اللغات الأخرى منذ عهد الأمويين، وإن لم تكن حركة الترجمة قد بلغت أَوْجَها إلا في عهد العباسيين الذين جاءوا من بعدهم في الحكم(١).

ويشير ستيفن إلى شيء من دوافعه في تأليف كتابه، وهو ما يراه ثغرات في الكتابة عن تاريخِ معاوية ﵁ قائلاً: «يجب أن أعترف بأن عرضي لمعاوية يَفتَرض مستوى من الوضوح والبساطة لا تبرّره المصادر؛ لأنها مصادر -أثرية كانت أم مكتوبة- مليئة بالثّغرات والغموض والتناقضات، ويمكن أن تكون كل فقرة في هذا الكتاب تقريبًا موضوعًا لمقالة مهمة أو حتى دراسة مفردة»(٢).

ويؤكد ستيفن حقيقة هذا التشويه وأنه كان من دوافع الكتابة عن معاوية ﵁ بقوله: «صوَّرَتِ المصادرُ حول سيرة حياة معاوية مع التخيلات اللاحقة، والتشويهات الأيديولوجيّة والثّغرات، حالات من سوء الفهم التي كان ينبغي التعامل معها

(١) ينظر: معاوية بن أبي سفيان: من الجزيرة العربية إلى تشكيل الإمبراطورية.
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص (٩).

على نحو نقدي لتكون مفيدة»[١]، مضيفًا أن معاوية يستحق إلى حدٍّ كبير عناء معرفته، وَوَصَفه في الفصل الأول بالشخصية الحاسمة، كما وصفه بأنه كان عبقريًا سياسيًا في وقت لم يكن باستطاعة أحد -وفق المنظور- أن يُنقذ الإمبراطورية الإسلامية من التفكك[٢].

ومما لفت انتباه ستيفن بوضوح سماحة الإسلام وأهله، وكيف يتم تجاهل هذه القِيَم عن الإسلام والمسلمين لدى بعض المؤرخين والمستشرقين: «كان معاوية معروفًا بين الكتَّاب السريان بالاستقرار والعدالة والتسامح، لكنهم قدَّموا القليل من الحقائق -إن وُجدت- لدعم هذا الحكم»[٣].

وهذه الغيْرة العلمية عند ستيفن تؤكد حجم محاولات التشويه في التاريخ، لدرجة جعلت هذا المؤرخ يكتب الحقيقة التاريخية حول معاوية رضي الله عنه، والحقيقة أن حركة معاوية في وحدة الأمة لا تختلف كثيرًا عن جهود الصِّديق أبي بكر رضي الله عنه في توحيد الأمة بعد حروب الردة.

> **«يُعدّ معاوية بن أبي سفيان شخصيّة ذات أهمية حاسمة في المرحلة التكوينية للخلافة والإمبراطورية العربية الإسلامية، لكن حتى في طوفان الدراسات التي تناولت القرن الإسلامي الأول؛ لم يحظ معاوية باهتمام يُذكر على نحو يدعو إلى الدهشة!»**
>
> **ستيفن همفريز**

(١) ينظر: المرجع السابق، ص (١٠).
(٢) ينظر: المرجع السابق، ص (١٣).
(٣) ينظر: المرجع السابق، ص (١٥).

منجزات في وحدة المسلمين:

لعل من عدالة القول أنه مهما قيل عن تضخيم سَلبيات ومَثَالب الدولة الأموية التي كانت بالفعل موجودة فهم ليسوا بملائكة أو معصومين، بل مهما روَّج أتباع تلك الفرق من الرافضة الباطنية ومن تأثر بهم من بعض المؤرخين والمستشرقين، فإن وحدة الإسلام والمسلمين كانت قيمة كبرى، فمعاوية بن أبي سفيان ﵄ استطاع أن يحافظ على دولة الإسلام كبيرة موحَّدة مترامية الأطراف، وقد وصلت إلى حجم الدول العظمى، وقد كان معاوية سياسيًا حكيمًا ومحنكًا لا يُشق له غبار، ولا ينبغي أن يستهان بقدراته وإمكانياته التي خدمت الإسلام ووحَّدت أتباعه بوحدةٍ فريدة، فهو رجلُ دولة. والواقع أنه لولا حكمته وصرامته لاستمرت حرب الفتنة الأهلية بين المسلمين، ولربما انتهت الدولة الإسلامية أو انفَرَطَ عِقْدُها؛ لدرجة أن سُمي العام الذي تولى فيه معاوية خلافة المسلمين الحكم بعد تنازل الحسن بن علي ﵄ جميعًا عام ٤١هـ (عام الجماعة)؛ وذلك تعبيرًا عن وحدة المسلمين، لتستمر الخلافة الأموية أكثر من (واحد وتسعين) عامًا بحوالي (أربعة عشر) خليفة.

والحقيقة التاريخية تقول: لا غرابة أن تكره الفِرق المنحرفة من الرافضة الباطنية وغيرهم من النصارى معاوية بن أبي سفيان ﵄؛ لأن الأمويين واصلوا الفتوحات غربًا حتى وصلوا إلى شمال إفريقيا وإسبانيا، ووصلوا شرقًا إلى الهند والسند(١)، ولأن معاوية كذلك كان يغزو الروم بصفةٍ مستمرة؛ حيث كان يغزو الروم كل ستة أشهر حسب ما أورده ابن كثير رحمه

(١) كثير مما ورد حول الباحث ستيفن تم اقتباسه مما ورد في كتابه، وكذلك من مقال تعريفي عن كتاب معاوية بن أبي سفيان المنشور في صحيفة البيان الإمارتية، مقال بعنوان (من الجزيرة العربية إلى تشكيل الإمبراطورية: معاوية بن أبي سفيان)، بتاريخ ١٩ فبراير ٢٠٠٧م.

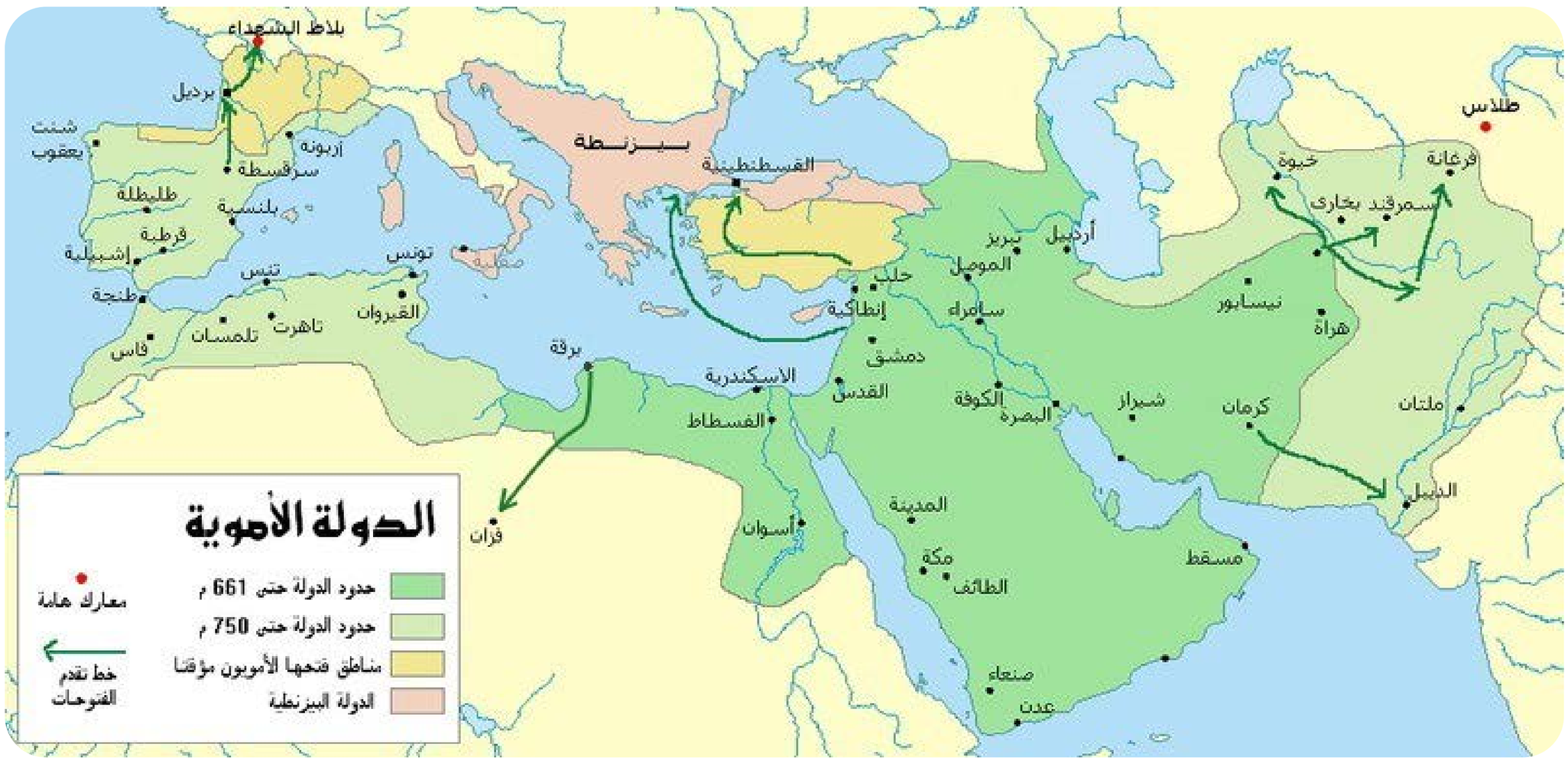

الله[1]، وهي الغزوات المسمَّاة الصوائف والشواتي، كما أن هذه الفِرَق الباطنية مع النصارى كذلك يُبغضون معاوية؛ لأنه حَكَمَ أمة الإسلام حوالي عشرين سنة معظمها كان في جهادٍ مع الروم، ويكرهون معاوية لأنه استكمل فتوحات الشرق الإسلامي بفارس وما وراءه، وبلاد السند، وبلاد ما وراء النهر، وبقية الشمال الأفريقي إلى حدود المحيط الأطلسي، وأعداء الإسلام لا يُحبون معاوية لأنه أسس دولةً وصلت جيوشها إلى حدود الصين، وتخوم روسيا وأطراف أوروبا، ومن أبرزها الأندلس.

وأرباب الفِرق المنحرفة عن منهج أهل السنة والجماعة كما النصارى يُبغضون معاوية ﷺ لأن جيش الدولة الأموية من أوائل الجيوش التي حاصرت القسطنطينية عاصمة الروم الشرقية، التي كانت من أعظم الإمبراطوريات في التاريخ آنذاك، بل كانت مركز الكنيسة الشرقية حينذاك، وقد كان حصارها الطويل من تاريخ ٥٤هـ إلى ٦٠هـ، وما كان لهذا من أثر إيجابي كبير في تاريخ المسلمين حول إمكانية فتح هذه العاصمة الأرثوذكسية المعادية لسيادة دولة الإسلام وأهلها.

ومن منجزات الدولة الأموية: إضافة عواصم حضارية للمسلمين، وعلى رأسها دمشق الشام بمواردها الغذائية

(١) البداية والنهاية، لابن كثير (١٣٥/٨).

والإنمائية التي تتوافق مع توسع الإسلام وقوته وانتشاره، ومع ازدياد أعداد المسلمين كذلك، كما أن من المنجزات ما ورد في كثير من الكُتب التاريخية، أن معاوية بن أبي سفيان ﵄ جعل من البحر المتوسط بحرًا إسلاميًا تصول فيه وتجول سفن الإسلام والمسلمين، دون ترخيص عبور أو جواز مرور، وقد كان المسلم زمن بني أمية يُعامل في عموم بلاد الرومان ودولهم بأنهم سادة البر والبحر، وكان معاوية قد أسس دولةً مترامية الأطراف بدون حدود، وقد شيَّدت أسطولاً بحريًا واسعًا كبيرًا خاصًا بالمسلمين بعد ما صنعه عثمان بن عفان ﵁، وكذلك هم يكرهون معاوية لأنه أول من بنى ترسانة بناء سفن بحرية في جزيرة الروضة بمصر سنة ٥٤هـ وفتح جزيرة قبرص في البحر المتوسط.

وهم حينما يكرهون معاوية؛ فلأنه أسس دولةً صَنَعت للمسلمين عملةً اقتصاديةً خاصةً بهم زمن عبدالملك بن مروان عام ٧٤هـ، حيث كان أول دينار إسلامي مستقل عن الاقتصاد البيزنطي[١]، والنصارى يُبغضون معاوية لأنه قال: «شُدُّوا خِنَاق الروم؛ فإنكم تضبطون بذلك غيرهم من الأمم»[٢]، إضافةً إلى ما سبق من هزيمة البيزنطيين النصارى في معركة ذات الصواري البحرية بتفوق بحري إسلامي جديد على النصارى، وذلك عام ٣٥هـ أواخر خلافة عثمان ﵁.

وتتأكد أهمية وقيمة إمامة معاوية ﵁ وحُكمه أنها جاءت بسبب سياقات الأحداث التاريخية والظروف المحيطة من الفتن والمحن، التي كان يتطلب الأمر وأدها في مهدها، وتجاوزها بأي صورة مشروعة، تُحقق حقن الدماء ووحدة الإسلام والمسلمين، وحُقَّ لمعاوية أن يُوصف وقد تجاوز بأمة الإسلام أحداث الفُرقة

(١) ينظر: الدولة الأموية المفترى عليها: دراسة الشبهات ورد المفتريات، لحمدي شاهين.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ص (٢٣٠).

والفتن بأن يُقال عنه ما قاله عمرو بن العاص ﷺ عن بعضِ خصال الروم: «إنهم لأَحْلَمُ الناسِ عند فِتنَةٍ، وأسرعُهُم إفاقَةً بعد مُصِيبَةٍ»(١)، وربما كانت هذه الفتن والمحن من الدوافع الرئيسة لإعلانه الحُكم في الشام، وحسم هذا الأمر الكبير -حسب رأى ستيفن- كما سبق إيراده، والأمر لله من قبل ومن بعد.

إن الفِرق المنحرفة -من الرافضة الباطنية وغيرهم من النصارى- يُبغضون معاوية؛ لأنه حَكَمَ أمة الإسلام حوالي عشرين سنة معظمها كان في جهادٍ مع الروم، واستكمل فتوحات الشرق الإسلامي بفارس وما وراءه، وبلاد السند، وبلاد ما وراء النهر، وبقية الشمال الأفريقي إلى حدود المحيط الأطلسي، وأسس دولةً وصلت جيوشها إلى حدود الصين، وتخوم روسيا وأطراف أوروبا

(١) أخرجه مسلم (٢٨٩٨).

وحول وصول معاوية للحكم: وَصَفَ خصومُهُ حكمَه ﷺ والدولةَ الأمويةَ بالاستبداد والمُلك العضوض[1]، متناسين أن (الواقعية) حسب الحوادث والظروف التاريخية المحيطة بالأمة، كانت مُلزِمة إلى حدٍّ كبير بأهمية وجود وحدة الأمة والدولة قبل كل شيء، وهو ما اقتضى الحسم ولو بالملك وعصبة القبيلة لمواجهة الفُرقة والاختلاف؛ لتحقيق مصلحة أكبر رآها معاوية ﷺ وعمل بها، كما رآها معظم المسلمين آنذاك، وبالأخص أن حُكْمَه جاء بعد فتنة معركة الجمل عام ٣٦هـ، وبعد فتنة معركة صفين عام ٣٧هـ، رضي الله عن الصحابة أجمعين، وبعد معركة النهروان بين الخوارج وعلي ﷺ عام ٣٨هـ، وما ترتب على هذه المعارك من استمرار الفُرقة والخِلاف الخطير على أمة الإسلام، مما استوجب إصلاح حال الأمة الإسلامية ووحدتها آنذاك، من خلال سياسة الإجهاض والحسم للفتن ولخطط ابن سبأ اليهودي وأتباعه من الرافضة وغيرهم، والحمد

(١) ورد في الأحاديث النبوية وصف المرحلة التي تلي الخلافة الراشدة بوصفين مختلفين: ففي حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما: (تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا، فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبرية، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة) أخرجه أحمد (١٨٤٠٦). وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما: (أول هذا الأمر نبوة ورحمة، ثم يكون خلافة ورحمة، ثم يكون ملكًا ورحمة، ثم يتكادمون عليها تكادم الحُمُر) أخرجه الطبراني في الكبير (١١١٣٨). وبهذا يتبين أن هذه المرحلة ليست على سويَّة واحدة، بل هي على مراتب متفاوتة بعضها أَخْيَر من بعض، وبالجمع بين النصوص الشرعية وحقيقة أوضاع تلك الحكومات ومنها حديث: (لا يزال هذا الدين قائمًا حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم تجتمع عليه الأمة) وفي رواية: (كلهم مِن قريش) أخرجه أبو داود (٤٢٧٩)، وأصله في الصحيحين دون قوله (كلهم تجتمع عليه الأمة)، يتبين أنه لا يصح وصف حكم معاوية رضي الله عنه خصوصًا، والدولة الأموية عمومًا بأنها حكم عضوض، بل هي ملك رحمة. قال ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/٤٧٨): «واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة؛ فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة وهو أول الملوك؛ كان ملكه ملكًا ورحمة كما جاء في الحديث: (يكون الملك نبوة ورحمة ثم تكون خلافة ورحمة ثم يكون ملك ورحمة، ثم ملك وجبرية، ثم ملك عضوض)، وكان في ملكه من الرحمة والحلم ونفع المسلمين ما يعلم أنه كان خيرًا من ملك غيره».

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

لله القائل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

وقد أوضح ابن كثير -رحمه الله- مخاطر انحسار الجهاد الإسلامي بضعف الدولة الأموية عن ساحات الفتوحات والوحدة فيما بعد، وأثر هذا على ميلاد طوائف الضلال والانحراف واستقوائها، مثل دولة القرامطة (٢٨٦-٤٧٠هـ/ ٨٩٩-١٠٧٧م) والدولة العُبيدية (الفاطمية) كذلك، وانعكاس قيام هذه الدول الباطنية الرافضية على وحدة المسلمين وقوتهم، وجرأة الأعداء من النصارى على بلاد المسلمين، وذلك بقوله: «ولما دخل طائفة ممن هرب من بني أمية إلى بلاد المغرب وتملَّكوها أقاموا سوق الجهاد في الفرنج بها، ثم لما بَطَلَ الجهاد من هذه المواضع رجع العدو إليها فأخذ منها بلادًا كثيرة، وضَعُفَ الإسلام فيها، ثم لما استولت دولة الفاطميين على الديار المصرية والشامية، وضَعُفَ الإسلام وقلّ ناصروه، وجاء الفرنج فأخذوا غالب بلاد الشام، حتى أخذوا بيت المقدس وغيره من البلاد الشامية، فأقام الله سبحانه بني أيوب مع نور الدين، فاستلبوها من أيديهم وطردوهم عنه، فلله الحمد والمنة»[1].

> **لدولة بني أمية منجزات حضارية وفضل على الإسلام ووحدة المسلمين، وقد أصبحت الدولة الأموية بوابةً لتأسيس الدول الإسلامية المتعاقبة عبر التاريخ بعواصمها الحضارية المتعددة، ولم تكن هذه الدولة أو غيرها مُبَرَّأة من الأخطاء والنقائص والعيوب كما هي جميع الدول بسابق التاريخ ولاحقه**

(١) البداية والنهاية (٩/٨٨).

وكفى في التشويه التاريخي من الرافضة الباطنية أنهم كفَّروا معظم صحابة رسول الله ﷺ، بمزاعم أنهم أخفوا وصية الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي بايع أبا بكر وعمر، ثم عثمان رضي الله عنهم أجمعين، فالرافضة الباطنية أمة التكفير والقتل بحق لدى علماء الأمة وحسب التاريخ بماضيه وحاضره(١).

وخلاصة القول عن وحدة المسلمين: أن دولة بني أمية بمنجزاتها الحضارية وفضلها على الإسلام ووحدة أتباعه من المسلمين، جعلت كثيرًا من المؤرخين والباحثين يكتب عنها بما يفوق كتابات أصحاب الأهواء والتشويه ويُميِّزها، وقد أصبحت الدولة الأموية بوابةً لتأسيس الدول الإسلامية المتعاقبة عبر التاريخ بعواصمها الحضارية المتعددة، بالرغم من وصف بعض هذه الدول بالملك العَضُوض، ولم تكن هذه الدولة أو غيرها مُبَرَّأة من الأخطاء والنقائص والعيوب كما هي جميع الدول بسابق التاريخ ولاحقه -كما سبق إيضاحه-، وصدق الله القائل: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) ينظر: الشيعة هم العدو فاحذرهم، لشحاتة صقر، ص (٣٢-٣٥).

تزكية

التربية الجنسية
في زمن يزيَّن فيه الشذوذ

د. ياسر الشلبي

النائب العلمي لجامعة المعالي الخاصة - رئيس الجمعية السورية للصحة النفسية

أسهمت مجموعةٌ مِن الممارسات العلمانية والغربية في التخفيف من استنكار الشذوذ الجنسي وتشجيع الشاذّين على الكشف عن أنفسهم، وجعلهم يحاولون الضغط على المجتمع لتقبلهم وتقليدهم في شذوذهم، مما شكل خطرًا داهمًا على المجتمعات عمومًا، والأبناء بشكل خاص، وهذا المقال يعرض عددًا من العوامل التي تسهم في ضعف هوية الأبناء الجنسية، وميلهم للشذوذ أو تقبّله، إذ إن معرفة هذه العوامل وتجنّبها يقي بنسبة كبيرة مِن حصول المحذور

مدخل:

يُعدّ موضوع الشذوذ من المواضيع التي تثير اهتمام الكثير من الأفراد، وذلك بعد انتشار هذه الظاهرة في أنحاء العالم، وتحوّل أتباعها من ممارسين إلى دعاة لها ومدافعين عنها، حاصلين على تشريعات تحميهم وتجعل من أفعالهم الشاذة حرّية شخصية، بل سلوكًا «حضاريًا» يمارسه بعض البارزين في المجتمع! وأصبح من الشائع ترويج تلك السلوكيات عبر برامج الأطفال والرياضة والأفلام ووسائل التواصل الاجتماعي، ووصل الأمر إلى رفع علم الشواذ في بعض البلدان على الدوائر الحكومية، وتخصيص بعض الحصص المدرسية لتشجيع الطلاب على الشذوذ وتغيير الهوية الجنسية، وتغييب عبارة «الشذوذ» من كتب علم النفس واستبدال عبارة «المثلية الجنسية» بها، وحذفها من دائرة الأمراض العقلية والاضطرابات الجنسية، وزرع ثقافة الجنس الواحد ليتم قبولها في المجتمعات.

كلّ ذلك عمل على التخفيف من استنكار الشذوذ الجنسي وشجّع الشاذّين على الكشف عن أنفسهم من خلال لباسهم وتصرّفاتهم، وجعلهم يحاولون الضغط على المجتمع لتقبلهم وتقليدهم في شذوذهم.

ولا يخفى على أحد أنّ ما يجري يهدف لضرب الجذور الأساسية لنسيج الأسرة والانتماء لها وإحداث هوَّةٍ بين الجنسين؛ لتقوم العلاقات بينهما على التناقض والتّصادم بدلًا من التّكامل من خلال فهم كلّ جنسٍ خصائصه وقدراته ومهامه، وتعبيد الأفراد لأهوائهم مما يسهِّل السيطرة عليهم كالبهائم، فالإنسان عندما يُفرِط في الحرية لدرجة الانفلات يبحث عمن يستعبِدُه هربًا من تلَك الحرية الوهمية، وموجة الشذوذ هذه جاءت ضمن موجات أخرى لهدم الفطرة وتحطيمها، إلى جانب موجات النسوية، والمناداة بحرّية الطفل في اختيار جنسه وممارسة الجنس حتى ولو لم يكن مميزًا، والانحدار بالهوية الإنسانية بالكلية وظهور ظاهرة التزاوج من الحيوانات، وظاهرة الكلاب البشرية، يصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

وفي هذا المقال سأقتصر على تسليط الضوء على عوامل الحماية والوقاية لأبنائنا من التأثر بهذا الداء والبلاء الذي انتشر حتى في بلاد المسلمين.

التنشئة الخاطئة للطفل تلعب دورًا كبيرًا في عدم تقبل الطفل لهويته الذكورية أو الأنثوية في المستقبل، فشخصية الطفل تتأثر كثيرًا بأسرته، ومن تلك الأخطاء: تعامل الأهل مع الأبناء تعامل الإناث في النداء واللباس والألعاب والشكل، والعكس بالنسبة للبنات

العوامل التي تساهم في ضعف الهوية الجنسية وميل الأبناء للسلوك الشاذ وتقبله:

هناك العديد من العوامل التي تساهم في ضعف هوية الأبناء الجنسية، وميلهم للشذوذ أو تقبّله، ومعرفة هذه العوامل وتجنّبها يقي بنسبة كبيرة من حصول المحذور، ومن أهمها:

- التنشئة الخاطئة للطفل: والتي تلعب دورًا كبيرًا في عدم تقبل الطفل لهويته الذكورية أو الأنثوية في المستقبل، فشخصية الطفل تتأثر كثيرًا بأسرته، ومن تلك الأخطاء: قيام الأهل بإطالة شعور أبنائهم الذكور كشعور البنات، وتوجيههم للعب بألعابهن وإلباسهم لباسهنّ، والعكس كذلك بالنسبة للبنات.
- تعرّض الأطفال في صغرهم إلى التحرّش الجنسي من قِبَل أحد أفراد العائلة أو من المقرّبين أو المكلّفين بحمايتهم.
- اطلاع الأطفال على الممارسات الجنسية للوالدين بشكل مباشر عن طريق الخطأ.
- العيش في بلاد الغرب وحضور الحصص الجنسية الموجّهة للأطفال في المدارس.
- الاطلاع على الممارسات الشاذّة من خلال وسائل التواصل والإعلام المختلفة، والتي تصوّر حالات الشذوذ الخاصة وكأنّها حالات عامة وطبيعية وناشئة عن حبّ كالذي ينشأ بين الجنسين، وطرح المواضيع الجنسية للنقاش في برامج حوارية تدعو لتقبل الشذوذ والشاذين.
- مشاهدة بعض أفلام الكرتون المحبّبة للأطفال التي تروّج للانحلال والشذوذ برسائل ضمنية غير مباشرة تعمل على تغيير مفاهيم التربية المنضبطة بشكل تراكمي وممنهج، تجعل الطفل يعتاد على ما يعرض من أفكار ومشاهد

تؤثر في تكوين شخصيته وتجعله يتقبلها بسهولة عندما يكبر بل ويقلّدها، يقول د. عبدالوهاب المسيري: «إنّ الأفلام الأمريكيّة تروّج لكثيرٍ من القيم، دون أن يدرك المتلقّي أنّه يُلقَّن من خلال الفيلم كثيرًا من القيم التي تتحيّز لها هوليود، مثل المنافسة والمطاردة والعنف، وهي قيمٌ تنبع من رؤيةٍ داروينيّة للواقع ومن فكرة الفرد المطلق، لو نُقلت هذه الأفكارُ للمتلقّي بشكلٍ مباشرٍ لاشمأزّ منها ورفضها، ولذا فهي تقدّم له وكأنّها تسليةٌ بريئةٌ لا تجسّد قيمةً أو نموذجًا معرفيًّا وحشيًّا»[1].

» التسويق والترويج للشذوذ عبر العديد من الوسائل غير المباشرة، كملابس الأطفال والأدوات المدرسية من حقائب ودفاتر ونحوها، فالكثير منها إمّا أن يحمل شعار وعلم الشواذ أو صورًا تروّج للشذوذ أو تصدّر رموزه.

» الغزو الفكري من خلال تحويل الشذوذ الجنسي من معصية فردية إلى قضيّة عالمية لها منظماتها التي تدافع عنها وقوانين تحميها، ونقل معركة الشذوذ إلى العالم الإسلامي، وإبراز الشاذين من المسلمين ودعمهم ليشتهروا، وتجاوز حقّ الأفراد في الاختلاف والرفض للممارسات التى تختلف مع معتقداتهم وأفكارهم إلى اتهامهم إذا صرحوا عنها بالعنصرية والإرهاب المثلي.

» عدم توفير الرعاية والاحتواء النفسي للطفل من قبل الوالدين، مما يؤثر على تكوين هويته الحقيقية ويدفعه لتكوين هوية مزيفة بعيدة عن القيم الإسلامية والعادات المجتمعية والتي غالبًا ما تتكون من خلال تأثره بما يشاهده في الإعلام، وقد يبدّل هويته لإرضاء المتعاملين معه؛ فيصاب بمجموعة من الأمراض الاجتماعية الخطيرة التي توصله

(١) العالم من منظور غربي، د. عبدالوهّاب المسيري، ص (٦٦).

إلى الفصام الاجتماعي الذي يُعدُّ أخطرها، حيث يضيع في هذا العالم الوهمي ويبني على أساسه قيمه ومعالجته للمواضيع، ويفقد الصلة المطلقة بعالمه الحقيقي وقد تتكون لديه الهوية المغتربة والقلق الهويّاتي.

العوامل التي تساهم في بناء الهوية الجنسية وحماية الأبناء من الشذوذ:

أولاً: الاهتمام بتربية وضبط الدوافع لدى الأبناء منذ الصغر:

فمن خصائص التربية الإسلامية التكامل؛ فهي تربية يكمّل بعضها بعضًا في حياة الإنسان، ولا يمكن الاهتمام بجانب وإهمال آخر، وفيما يلي توضيح لعلاقة بعض الدوافع بدافع الجنس:

أ- علاقة ضبط دافع الجوع والشبع بالتربية الجنسية:

يأتي في مقدمة التربية الجنسية للأبناء تربية دافع الجوع؛ فهو من أول الدوافع التي تعمل لدى الطفل منذ الصغر، فإذا عمل الأبوان على ضبط هذا الدافع سهل بعد ذلك ضبط باقي الدوافع عندما تبدأ عملها ومن ضمنها دافع الجنس، وقد جاءت العديد من النصوص التي تؤكد على وجود علاقة بين الجوع والجنس، (يا معشر الشبّاب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء)[1].

قال عبد الرحمن بن زيد: أول ما يعمل فيه العبد المؤمن بطنه، فإن استقام له بطنه استقام له دينه، وإن لم يستقم له بطنه لم يستقم له دينه.

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠).

وقال مالك بن دينار: من ملك بطنه ملك الأعمال الصالحة كلها[١].

ومن الجوانب المرتبطة بضبط دافع الجوع والجنس معًا:

١. اختيار الأم والمرضعة: قال ابن قدامة: «كره أبو عبد الله الارتضاع بلبن الفجور والمشركات، وقال عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنهما: اللبن يشتبه، فلا تسترق من يهودية ولا نصرانية ولا زانية، ... ولأنّ لبن الفاجرة ربما أفضى إلى شبه المرضعة في الفجور، ويجعلها أمًّا لولده، فيتعيّر بها، ويتضرر طبعًا وتعيرًا، والارتضاع من المشركة يجعلها أمًّا لها حرمة الأم مع شركها، وربما مال إليها في محبة دينها، ويكره الارتضاع بلبن الحمقاء؛ كيلا يشبهها الولد في الحمق فإنّه يقال: إن الرضاع يغير الطباع»[٢].

٢. الحرص على المأكل والمشرب الحلال: قال الإمام الغزالي: «بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وإرضاعه إلا امرأة متدينة تأكل الحلال؛ فإن اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه، فإذا وقع عليه نشو الصبي انعجنت طينته من الخبيث فيميل طبعه إلى ما يناسب الخبائث»[٣].

٣. تعويد الطفل على الطعام الصحّي، والتزام عادات الأكل الصحيحة في سنّ مبكرة، فهذا يهذّب اختياراته في إشباع شهواته بصورة صحية، وإقامة علاقة إيجابية مع الطعام وباقي الاحتياجات، ويعوّده على ألا يشبع حاجاته إلا بما كان طيبًا مباحًا، فعادات الطعام لا تُعبر فقط عن نمط غذائي معين، ولكنها تكون مؤشرًا لسلوك شخصي كامل في الأغلب.

(١) الجوع لابن أبي الدنيا، ص (٧٨).
(٢) المغني لابن قدامة (٩/ ٢٢٨).
(٣) إحياء علوم الدين (٣/٧٢).

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

العوامل التي تساهم في بناء الهوية الجنسية وحماية الأبناء من الشذوذ

١ الاهتمام بتربية وضبط الدوافع بأنواعها منذ الصغر

٢ البناء الإيمانيّ في نفسية الطفل منذ الصغر

٣ بناء الهوية الجنسية للذكر أو الأنثى كل بحسبه

٤ البناء المعرفي الصحيح في النواحي الأخلاقية والجنسية

٥ تعليم مهارات التفكير بالتدرج حتى يتمكنوا من التفكير الناقد

٦ الاهتمام بتكوين ضمير الطفل ووازعه الداخلي

٧ تعزيز الملكية الفردية والخصوصية عند الطفل

٨ الاهتمام بعوامل الوقاية التربوية والاجتماعية قبل العلاج

٩ الاهتمام بعوامل الوقاية التربوية والاجتماعية قبل العلاج

٤. تعويده على فهم احتياجات جسمه بشكل صحيح، ومن ذلك: تعويده على الصيام ليضبط نفسه أمام مغريات الطعام ثم باقي مغريات الحياة، فقد لاحظ العلماء أنّ الأطفال الذين يتناولون الطعام بمجرّد رؤيته ويأكلون بشراهة حتى ولو كانت بطونهم ممتلئة فهم في الأغلب أقلّ قدرة على التحكّم في الذات والسيطرة على النفس في المستقبل.

٥. عدم مكافأة وتحفيز الأبناء باستخدام الإغراء بتناول طعام غير صحي محبب لهم (كالأطعمة الغنية بالسكريات والنشويات والمشروبات الغازية)، أو العقاب بالحرمان منه، فخطورة ذلك أنّ هذا النوع من التعامل يرسخ فكرة ربط إشباع شهوات النفس بالحالة المزاجية للطفل سواء في السعادة أو الحزن.

> **يأتي في مقدمة التربية الجنسية للأبناء: تربية دافع الجوع، فهو من أول الدوافع التي تعمل لدى الطفل منذ الصغر، فإذا عمل الأبوان على ضبط هذا الدافع سهل بعد ذلك ضبط باقي الدوافع عندما تبدأ عملها ومن ضمنها دافع الجنس، وقد جاءت العديد من النصوص التي تؤكد على وجود علاقة بين الجوع والجنس**

ب- ضبط دافع حب الاستطلاع والاستكشاف:

يعرّف دافع حُبِّ الاستطلاع بأنّه حالة نفسية داخلية، تدفع الشخص إلى اكتشاف البيئة، وجمع المعلومات، وتحصيل المعرفة، ويعدّ إشباعها ضرورة للصحة النفسية في جميع مراحل العمر(١).

وتعتبر الحاجة إلى الاكتشاف والاستطلاع من الحاجات التي تدفع الفرد للسلوك من أجل النمو، وهي من قبيل حاجات تحقيق الذات.

ومن الجوانب المرتبطة بضبط دافع حب الاستطلاع والجنس معًا:

١. حماية الطفل منذ ولادته من الاطلاع على الممارسات الجنسية سواء التي تكون بين الوالدين، أو أشخاص آخرين.
٢. المتابعة والتعليق: من خلال ضبط ما يشاهده الطفل ويطّلع عليه عبر التلفاز ووسائل التواصل، ومتابعة ما يشاهده الطفل والتعليق على أيّ محتوى شاذ وتوعية الأبناء

(١) استجابة الوالدين والمشرفين لأسئلة أطفال ما قبل المدرسة، لحسام هبة، رسالة دكتوراه غير منشورة مودعة بكلية التربية جامعة عين شمس ١٩٨٩م، ص (٤٦). وينظر: خيري المغازي عجاج، دافعية حب الاستطلاع، ص (١٣).

بمخاطره، حتى لا تتكون لديه هوية هشّة إسفنجية تجعله يتأثر بهويات الآخرين من خلال تقليد الصور والرموز والتي قد تتعارض مع دينه وثقافة مجتمعه.

٣. تعويد الأطفال على آداب الاستئذان وتربيتهم على غضّ البصر، وأبرز هدف من الاستئذان ألّا تقع أنظارهم على عورات آبائهم وأمهاتهم، وبالتالي قد تُحدث هذه المشاهد آثارًا نفسيّة تنعكس سلبًا على شخصياتهم، وتعليمهم أحكام اللباس لستر العورة وحفظ الصحّة.

٤. الإجابة على تساؤلات الطفل حسب عمره، والطفل يكتشف الفرق بين الذكور والإناث مصادفةً، ويحاول اكتشاف سبب هذا الفرق بنفسه في ظل عدم قدرة الآباء والمربين على الإجابة على مثل هذه التساؤلات أو شعورهم بالحرج أمام الطفل، وعندما يتحدّث الطفل ويسأل عن أعضائه التناسلية فهو يتحدّث بنفس الطريقة التي يتحدث بها عن ذراعه أو قدمه، فهو عندما يسأل السؤال لا يعتبره قبيحًا أو غير لائق.

ومن الأسئلة التي ينبغي أن يجيب المربي عنها: سؤال الطفل عن جنسه أو الميول الجنسية أو مفهوم تغيير الجنس، ولماذا خلقنا الله من ذكر وأنثى.

يعرّف دافع حُبِّ الاستطلاع بأنّه حالة نفسية داخلية، تدفع الشخص إلى اكتشاف البيئة، وجمع المعلومات، وتحصيل المعرفة، ويعدّ إشباعها وضبطها ضرورة للصحة النفسية في جميع مراحل العمر

ثانيًا: البناء الإيمانيّ في نفسية الطفل منذ الصغر:

ليكون واقيًا وحافظًا له من الانحراف وزاجرًا له من الوقوع في المعاصي، ويترتّب على هذا البناء الإيمانيّ تكوين وعي أخلاقيّ يحفظ الفرد والمجتمع معًا، ومن جوانب البناء الإيماني التي تحمي الطفل من الانحراف:

أ. ربط الطفل بخالقه وتحبيبه بربه.

ب. تعليم الطفل منذ الصغر مفهوم التسليم لأمر الله وغرس القيم المرتبطة به مثل قيمة المرجعية والاتباع والإخلاص والوقوف عند حدود الله، وقدوتنا في ذلك النبي ﷺ الذي قال لابن عباس رضي الله عنهما: (يا غلام، إني أعلمك كلمات: احْفَظِ اللهَ يحفظْك، احفظ الله تَجدْه تُجَاهَك، إذا سألت فاسأَل الله، وإذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنَ بالله...)[1].

ثالثًا: بناء الهوية الجنسية الذكورية أو الأنثوية وذلك من خلال:

أ. تحبيب الطفل بجنسه والأدوار التي خُلق من أجلها، وإشعاره بالفخر بتكريم الله له وخلقه في أحسن تقويم، ورزقه إياه العقل الذي من خلاله يضبط ويدير غرائزه ودوافعه، مما يجعله أهلاً لعمارة الأرض والاستخلاف فيها.

ب. التحدّث معه عن سنن الله في الكون، والقوانين الكونية التي جعلها الله للكون بأكمله وللبشرية بشكل خاص، وأنّ مَن يخرق تلك القوانين فهو شاذّ لأنه يسير عكس تلك القوانين، ومن ذلك:

١. أن الله قد جعل التأنيث والتذكير سنّة كونية، فالكون كلّه قائم على التزاوج والثنائية، وجعل لكل من الذكر والأنثى أدورًا لو تغيرت أو جاءت على عكس السنن

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وصححه، وأحمد (٢٦٦٩).

الكونية لحدث خلل في الحياة أو هلك الناس، قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

٢. أنّ الله جعلنا مختلفين وهذا أمر طبيعي، ومحاولة تجاوز هذا الاختلاف أو إلغائه يخالف الفطرة؛ كأن يلبس الرجل لباس المرأة ويتكسر في مشيته ويحاول أخذ أدوارها، وتلبس المرأة لباس الرجل، وتترجل المرأة في مشيتها وتحاول أخذ أدوار الرجل، فإن ذلك كله مخالف للفطرة السوية وهو نوع من التخلف والشذوذ.

٣. أن تكوين العائلة فطرة أوجدها الله لجميع الكائنات وهي قائمة على الذكر والأنثى، ولا يمكن أن تتكون الأسرة والعائلة دون مكوناتها التي قدّرها الله، ومحاولة تكوين عائلة دون عنصر من عناصرها هو شذوذ وتدمير للأسرة والبشرية بشكل عام.

٤. أنّ الله أوجد الغريزة الجنسية وجعلها طاقة موجودة في كلّ الناس لتؤدّي وظيفة مهمّة وضرورية وهي التكاثر وعمران الأرض، وجعل الزواج هو الوسيلة المشروعة لإشباعها وقيامها بمهامها، فإذا أشبعت خارج نطاقها فهو اعتداء يستوجب العقوبة، وما من مجتمع تفشت فيه هذه الحالات حتى أصبحت ظاهرة إلا وأصابه الانهيار (والمثال الأشهر هو قوم لوط) وذلك لأنّ هذا السلوك يسير ضد تيار الحياة الطبيعية.

٥. من الممكن أن يتمنى بعض الصبيان لو أنّه فتاة أو بعض الفتيات لو أنها صبي، لكنّ هذا الأمر يعود لكونه لاحظ بعض الفوائد التي يتمتّع بها الجنس الآخر ويرغب بها، لكن ذلك لن يغير نوع جنسه، كما يرغب أحدنا أن يكون طويلاً لكن ذلك لن يغير الواقع. فطرح مثل

هذه الأفكار تحرك الذهن لدى الطفل وتجعله يفرّق بين ما هو شاذ وما هو طبيعي بطريقة سهلة وأسلوب مبسّط.

يجب التركيز على البناء الإيمانيّ في نفسية الطفل منذ الصغر، ليكون واقيًا وحافظًا له من الانحراف وزاجرًا له من الوقوع في المعاصي، ويترتّب على هذا البناء الإيمانيّ تكوين وعي أخلاقيّ يحفظ الفرد والمجتمع معًا

ج. تعويد الطفل منذ نعومة أظفاره على اللباس الذي يتناسب مع جنسه، وملابس الستر والحشمة والتي هي جزء من هويته وشخصيته، والانتباه للشعارات التي تحملها الملابس والألوان التي تشير للشذوذ، والكلمات ذات المدلول الجنسي التي تكتب على الملابس. ومن النصوص الدالّة على علاقة اللباس بالشخصية والهوية السوية أو المضطربة حديث: (لعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة، والمرأة تلبس لبسة الرجل)[١]. قال الإمام الغزالي في تربية الصبيان: «وأول ما يغلب عليه من الصفات شَرَهُ الطعام، فينبغي أن يؤدّب فيه،... وأن يُحَبَّبَ إليه مِنَ الثياب البيض دون الملوّن والإبريسم[٢]، وَيُقَرَّرَ عندَهُ أنَّ ذلك شأنُ النِّساءِ والمخَنَّثِين، وأنَّ الرجالَ يَسْتَنْكِفونَ منه، ويُكَرَّرُ ذلك عليه، ومهما رأى على صبي ثوبًا من إبريسم أو ملوّن فينبغي أن يستنكره ويذمّه»[٣].

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٨).
(٢) الحرير الصافي.
(٣) إحياء علوم الدين (٣/٧٢).

رابعًا: البناء المعرفي من خلال:

أ. تزويدهم بالمعلومات الصحيحة فيما يخص التربية الجنسية حسب المرحلة العمرية التي يمرون بها، وشرح ما يطرأ على المراهق من تغييرات فسيولوجيّة(١)، وكيف يتعامل معها والأحكام المرتبطة بها، وسبل سدّ كلّ الذرائع التي تهيّج الشهوة في غير محلّها؛ مما قد يصيب الشباب من الجنسين باضطرابات وآلام نفسيّة، ويوقعهم في تصرفات شاذة.

ب. ترسيخ معنى العفّة والاستعفاف عند الطفل مما يساعده على التسامي والترفّع عن الأمور الدنيئة، وبلوغ سبيل الطهر والعفاف، ويمكن الاستعانة بقصّة نبيّ الله يوسف التي تدور في أحد محاورها حول العفّة الجنسيّة بهدف التربيّة والتعلّم وحثّ الأبناء على التشبّه به عندما قهر شهوته بالإرادة الحازمة وقهر رغبته بتقوى الله وطاعته؛ «فإن الشهوة إذا غلبت ولم تقاومها قوة التقوى جرّت إلى اقتحام الفواحش»(٢)، أما إذا استخدمت تبعًا لإرادة الله فإن رغبة الجسد تلبّي أمره وتحقّق مصلحة الفرد في الدنيا والآخرة؛ إذ إنّ من مقاصد الله في الأرض ضمان استمرارية جنس الإنسان، والرغبات الجنسية تخدم هذا القصد.

ج. التوعية الجنسية المبكّرة للطفل بما يتناسب مع إدراكه، والتي تبدأ بتعريف الطفل بجنسه «أنتَ شاب قوي»، «أنتِ فتاة جميلة»، بحيث يتمكن من تمييز أفراد عائلته بناء على نوع جنسهم، ثم كلّ المتعاملين معه، ومن ثم يعرف لمن ينتمي من حيث النوع، ثم تعويده على الحياء من أن يتعرّى أمام الآخرين. وتعليمه كيف يحافظ على جسده، وعندما يقترب من البلوغ تعريفه بمعنى البلوغ وأدواره، والتصرّفات الخاطئة، ومنها

---

(١) الفسيولوجيا: علم دراسة وظائف الأعضاء والأجهزة الحيوية.

(٢) إحياء علوم الدين (٢/ ٢٨).

الشذوذ وأضراره من خلال عرض بعض الصور أو الأبحاث التي تتحدّث عن آفات الغريزة وأمراضها الجنسية، ليرى الأولاد بأعينهم نتائج تلك الأفعال القبيحة، والتحدّث معهم عن الشذوذ الذي كان فاشيًا في قوم لوطٍ عليه السلام وكيف حاربها، والعذاب والإبادة التي استحقوها نتيجة إصرارهم عليها، وتعليم الطفل كيفية التعامل مع مروجي الشذوذ، وأهمية الابتعاد عنهم ومقاطعة وسائل التواصل الخاصة بهم، وعدم نشر أي منشور لهم حتى ولو من باب الاستنكار.

د. مخاطبة وتوعية الجيل من خلال الوسائل الحديثة والتواصل الاجتماعي: ففي هذا العصر لم تعد المواعظ والمحاضرات تكفي لتشكيل الوعي فهي خارج اهتمامات أبنائه، وشبكات التواصل تؤثّر فيه وتشكّل توجهاته أكثر من غيرها، فينبغي إصدار مقاطع قصيرة تظهر حقيقة الشذوذ والدعاة له، وحجم الجرم الذي يشكلونه على البشرية والإنسانية بشكل عام.

«إن الشهوة إذا غلبت ولم تقاومها قوة التقوى جرّت إلى اقتحام الفواحش»

الغزالي

خامسًا: تعليم الأطفال مهارات التفكير بالتدرج:

إلى أن يصل إلى مرحلة التفكير الناقد، فإذا أردنا لأطفالنا -في عالم دائم التغير- أن يكونوا مستقبلاًعلى درجة عالية من الثقة بالنفس قادرين على اتخاذ القرارات اتخاذًا مستقلاً، السليمة ورفض الأفكار الشاذّة التي تتعارض مع معتقداتهم وقيمهم، فعلينا تزويدهم بالمهارات اللازمة للحصول على المعلومات ومعالجتها وتمحيصها وتدقيقها.

سادسًا: الاهتمام بتكوين ضمير الطفل:

وهو يتضمّن التمييز بين ما هو حسن أو خير أو حلال، وما هو سيء أو شــرّ أو حرام من السلوك، والضمير يوجّه السلوك ليجعله مقبولاً عند الفرد، فالضمير الحي القوي هو الذي يجعل الطفل يغضّ بصره عمّا حرّم الله، وهو الذي يجعل المــراهق -رغم نداء الغريزة الجنسية- لا ينتهك ما حرّم الله من أعراض الناس أو يدخل في علاقات شاذّة.

سابعًا: تعزيز الملكية الفردية والخصوصية عند الطفل:

فحُبّ التَملُك عند الأطفال صفة طبيعية جيّدة إذا كان الطفل سيتعلّم فكرة أنه يَملك أمورًا وأغراضًا خاصّة به، ويجب عليه أن يحافظ عليها، وبنفس الوقت يفهم أن الآخرين أيضًا يَمتلِكون أغراضًا خاصة بهم ويجب علينا احترام هذه الحقيقة؛ وعندما يدرك الطفل هذه الفكرة نبدأ في شرح فكرة أن جسدنا أمانة عندنا وتقع علينا مسؤولية حمايته من الأخطار وعدم السماح لأحد باللعب به أو لمس أعضائنا التناسلية، وكيفية التعامل مع أي شخص يحاول التعدّي على ذلك، مما يساهم في حماية الطفل من التعرض للتحرش في صغره، واحترام خصوصية الآخرين وعدم التفكير بالاعتداء على الغير عند بلوغه أو السماح لأحد بالمساس به.

ثامنًا: بناء العلاقات السليمة:

من الأمور المهمّة التي تحمي الأولاد وتبني شخصيتهم وهويتهم: تعليمهم مهارات بناء العلاقات مع الآخرين، واختيار الأصدقاء الجيدين، وبيان حدود تلك العلاقات وأطرها، وتعميق الأخوّة في الله البعيدة عن التعلّق الشخصي، والتركيز على معاني الحب في الله والبغض في الله، فمن الأمراض التي ابتلي بها كثير من الشباب والفتيات في هذا العصر: التعلق والذي قد ينتج عنه علاقات شاذة.

من الأمور المهمّة التي تحمي الأولاد وتبني شخصيتهم وهويتهم: تعليمهم مهارات بناء العلاقات مع الآخرين، واختيار الأصدقاء الجيدين، وبيان حدود تلك العلاقات وأطرها، وتعميق الأخوّة في الله البعيدة عن التعلّق الشخصي، والتركيز على معاني الحب في الله والبغض في الله

تاسعًا: الاهتمام بعوامل الوقاية قبل العلاج ومن ذلك:

أ. «وضع منهاج تربوي أسري ومدرسي لتنمية غريزة الذكورة والأنوثة قبل البلوغ الجنسي، مما يجعل الطفل محصّنًا نفسيًا ضدّ الانحراف؛ كون السواء الفطرى محقّقًا، وهنا لابدّ من التمييز بين غريزة الجنس وغريزة الأنوثة وغريزة الذكورة، فغريزة الجنس لا تبدأ بالعمل إلا عند البلوغ، ولا يفهم الطفل ماهيتها إلا عند البلوغ، وتثقيفه باللذة الجنسية قبل هذه المرحلة يعتبر عبثًا، ولكن يجب تهيئة الطفل وتربيته وتنمية غريزة الأنوثة والذكورة منذ الطفولة، فالأنثى تحبّ الدلع والمكياج والنعومة والألوان الزاهية والملابس، والذكر يحبّ الألعاب القتالية والألوان غير الزاهية»[1].

ب. تكوين صداقات بين الأهل والأولاد، والعمل على إشباع مشاعرهم والاهتمام بها واحتضانهم كيلا يحاولوا إشباعها مع الآخرين فيقعون في تصرفات شاذّة، ثم الاهتمام بتعويدهم على اختيار الصحبة الصالحة التي تتواصى فيما بينها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتشديد في إبعادهم عن الصحبة السيئة وبيان مخاطرها لهم.

(١) إضافة من د. موسى الزعبي، بتصرف.

ج. الاستقرار الأسري واحترام الزوجين لبعضهما أمام الأطفال، وهذا مما يساعد على النموّ الصحيح، أمّا إذا شبّ في أسرة لا تسمح بالنموّ النفسي السليم، فإنّ المشكلات الجنسيّة تبدأ في الظهور وتتراكم حتى تعبّر عن نفسها في مرحلة المراهقة، فيكره الطفل العلاقة بين الرجل والمرأة نتيجة الخلافات الأسرية، وبعض الفتيات تنظر لوالدها على أنّه شخص سيء وتكره على أثره الزواج، وقد تسترجل لحماية نفسها من الرجال، وقد تلتحق بالجمعيات النسوية وتتبنى أفكارها ويمكن أن تتجه للعلاقات الشاذة.

د. حماية الأطفال من التعرّض للتحرّش أو الاعتداءات الجنسية سواء كانوا من الأباعد أم الأقارب، فكثير من التحرّشات تحصل للأطفال من الأقارب البالغين.

هـ. تعويد الطفل على فعل الطاعات والعبادات، والبعد عن المعاصي، وعدم التهاون معه عند ارتكابها، مما يعوّده على الانضباط والنّظام وتهذيب نفسه وينعكس على جميع سلوكه ومناحي حياته.

و. دمج الصبي مع أبناء جنسه واقتراب الوالد من ولده أكثر واصطحابه معه لمجالس الرجال، ودمج الفتاة مع بنات جنسها واقتراب أمها منها أكثر وجعلها تختلط بمجالس النساء، بالأخصّ عندما يكون الصبي أو الفتاة وحيدين فلا بدّ من الحرص على ذلك لكيلا يتأثر الصبي بالمحيط النسائي، أو تتأثر الفتاة بالمحيط الذكوري.

ز. فتح قنوات الحوار مع الأولاد والاستماع لما يدور في ذهنهم من أسئلة، وبالأخصّ المتعلقة بالنوع والجنس والهوية، وعدم الانزعاج من تلك الأسئلة أو التسرّع في إصدار الأحكام عليهم، وجعلها فرصة للتعرّف على المواقف التي تمرّ بهم والمشكلات التي تعترض طريقهم، وإعطاؤهم الفرصة

لطرح الحلول التي يمكن أن تساعدهم في التعامل مع الأطروحات التي تخالف الفطرة وتقود نحو الشذوذ.

ح. إبعاد الأبناء عن مواطن الفتنة، وتعليمهم كيفية التعامل مع وسائل التواصل التي تعرض ما يشوّه هويتهم وأن يجاهدوا أنفسهم ويكبحوا جماحها عن التجرؤ على المعاصي، فالفتن التي تعرض هي بحاجة لغض البصر وحفظ السمع والجوارح عن كلّ ما يقرّب من الحرام ويدعو إليه، وقد نهانا الله وحذّرنا من الاستجابة لوسوسة الشيطان، وبيّن لنا أسباب ذلك، عندما قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨]، وعندما قال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

ط. الدعاء للأبناء باستمرار، والتضرع إلى الله أن يحميهم من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

من أهم الوسائل وقاية الأبناء من المخاطر الجنسية: الحوار معهم والاستماع لما يدور في أذهانهم من أسئلة، وبالأخصّ المتعلقة بالنوع والجنس والهوية، وعدم الانزعاج من أسئلتهم، وجعلها فرصة للتعرّف على المشكلات التي تعترض طريقهم، وإعطاؤهم الفرصة لطرح الحلول التي يمكن أن تساعدهم وتعينهم

الصهيونية.. البناء الذاتي وحبل «الاستعمار»

أ. أمير سعيد
كاتب وباحث

جانب كبير من كراهية المسلمين للدول الغربية عمومًا يعود إلى تبنِّيها للكيان الصهيوني، والدفاعِ عنه في كل المحافل الدولية، واستخدام «حق النقض/ الفيتو» في مجلس الأمن ضد القرارات التي تُدين الكيان الصهيوني، فما سبب هذا التَّبني؟ هل هو سيطرة اليهود على تلك الدول وقرارها؟ أم مجرد مصالح مشتركة؟ وهل للعقلية الاستعمارية الغربية دور في ذلك؟ وما طبيعة العلاقة بين العالم الغربي والكيان الإسرائيلي؟، هذا ما تعمل هذه المقالة على إيضاحه وإلقاء الضوء عليه

تهبُّ الولايات المتحدة وبريطانيا لإنقاذ «إسرائيل»؛ التي تعد الدولة الأثيرة بالنسبة لهما، وتبدي «إسرائيل» معاندة أحيانًا حيال أي «ضغوط» هشة تمارس ضدها من واشنطن ولندن، واستقلالاً لافتًا عن هاتين الدولتين اللتين تقودان قاطرة الدعم الغربي للكيان الصهيوني.

يبدو اللوبي الصهيوني في واشنطن مؤثرًا جدًا على الناخب الأمريكي، ودفع من يريد إلى سدة الحكم في البيت الأبيض، فيما يحصل الأمر عينه في أحيان أخرى، حين يظهر أن الحكومة التي لا ترضاها واشنطن في تل أبيب سرعان ما تغادر السلطة مبكرًا، وحيث تقع «إسرائيل» في مأزق عسكري كبير تكاد تتولى واشنطن قيادة غرفة عملياتها وتستنفر عسكريًا لنجدتها.

جانب كبير من كراهية المسلمين للولايات المتحدة الأمريكية يعود إلى تبنِّيها للكيان الصهيوني، والدفاعِ عنه في كل المحافل الدولية، واستخدام «حق النقض/ الفيتو» في مجلس الأمن ضد القرارات التي تُدين الكيان الصهيوني.

نحو ٣٤٥ مليار دولار أنفقتها الولايات المتحدة الأمريكية على الكيان الصهيوني في صور مساعداتٍ عسكريةٍ وتقنيةٍ منذ إعلانه «دولة»، رؤوس أموال اليهود الصهاينة تتركَّز في

شركاتٍ كبرى تتَّخذ من الولايات المتحدة الأمريكية مقرًا لها، ما يَهَبُ الاقتصاد الأمريكي قوة هائلة.

ما سرُّ العلاقة بين الكيان الصهيوني والغرب؟

على الصعيد السياسي، يمكن الإجابة ببساطة أنَّ كلاً منهما يخدم الآخر، لكن السؤال الأصعب هو في ماهية الدافع وراء هذا التخادُم، خصوصًا حينما تكون فاتورة هذه العلاقة باهظة الثمن في بعض الأوقات، أهي العقيدة أم المصالح الدنيوية؟

عند أصحاب العقائد الفاسدة، غالبًا ما تختلط العقيدة بتحقيق أغراضٍ دنيويةٍ دنيئة، كمِثل ما مرد عليه الكهَّان منذ قديم الزمان، بل كانت المصالح المجتباة من تزييف الدين وتزويره هدفًا يصبو إليه الأحبار والرهبان، وحينما خطب البابا أوربان الثاني في دهماء أوروبا قبل ألف عام يستحثُّهم على غزو بلاد الشام في أولى الحروب الصليبية، استجاش مشاعرَهم الدينية فقال: «يا شعبَ الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار! لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية، أنباءٌ مُحزنة تُعلن أن جنسًا لعينًا أبعدَ ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد بلاد المسيحيين»؛ وندبهم إلى الغزو قائلاً: «اتخذوا طريقكم إلى ضريح المسيح المقدَّس ربنا ومنقذنا، الضريح الذي تمتلكه الآن أممٌ نجسة وغيره من الأماكن المقدسة التي لُوثت ودنست...»، ثم ثنى بالحديث عن المصالح المادية التي تُدغدغُ مشاعر الفقراء، قائلاً: «هذه الأرض التي تسكنونها الآن والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وتلك الجبال، ضيِّقةٌ لا تتَّسع لسكَّانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبحُ بعضُكم بعضًا، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية... انتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملَّكوها أنتم، إنَّ أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج، إنَّ التي لُوثت ودنست...»، ثم ثنى بالحديث عن المصالح المادية التي تُدغدغُ مشاعر الفقراء، قائلاً: «هذه الأرض التي تسكنونها الآن والتي تحيط بها من جميع جوانبها البحار وتلك الجبال، ضيِّقةٌ لا تتَّسع لسكَّانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبحُ بعضُكم بعضًا، وتتحاربون ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية... انتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث وتملَّكوها أنتم، إنَّ أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها، هي فردوس المباهج، إنَّ

المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هُبُّوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم، وثقوا بأنكم ستنالون من أجل ذلك مجدًا لا يفنى في ملكوت السماوات»[١].

ولعل خطبة أوربان تُعد منهجًا تأسست عليه استراتيجية غربية لاحقة في جميع حملاتها الصليبية، ومنها تلك التي انحرفت باتجاه زرع «إسرائيل»، فهي تجمع ما بين: التأجيج العرقي (الفرنجة)، والتميُّز الديني (الكاثوليكية)، الدعاية السوداء (ذبح المسيحيين الشرقيين)، إثارة المطامع (ضيق فرنسا وبركة ورحابة الشام)، الهدف الأخروي (صكوك الغفران)، وحدة الهدف (جنة الأرض/ بيت المقدس)، تجنُّب عوامل الخلاف التالية (توحيد الكنائس)[٢].

إنَّ هذا عينَه هو المزيج الذي حرَّك قادة أوروبا لزرع «إسرائيل» في خاصرة العالم الإسلامي، وهو نفسه ما دفع يهودًا لإنضاج فكرة الصهيونية من أجل تحقيق حلم يهوديٍّ أو بالأحرى حلم لدى قطاع من اليهود. إنها العقيدة التي تضع الاستراتيجية، أو هي الاستراتيجية التي تتدثَّر بالعقيدة.

الصهيونية:

والصهيونية، كما تعرِّفها «موسوعة المصطلحات الإسرائيلية»: هي اسم لحركةٍ وإيديولوجية تعبر عن رغبات وطموحات الشعب اليهودي في العصر الحديث وفي مقدِّمتها «العودة» إلى «أرض إسرائيل»، على حدّ تعبير هذه الحركة...

(١) صلاح الدين الأيوبى وجهوده فى القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير بيت المقدس، للدكتور: علي الصلّابي (٣٩/١).

(٢) الحروب الصليبية، العلاقات بين الشرق والغرب، للدكتور: محمد مؤنس عوض، ص (٦٧-٧٨).

وقد أُقرّ اسم «الصهيونية»[١] في المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد في بازل في سويسرا في العام ١٨٩٧م»[٢]. غير أن الصهيونية كمعنىً ومرادٍ أقدم من ذلك بكثير، وهي بلوَرَةٌ لتفاعلٍ فكريٍّ وعَقَديٍّ استمرَّ لعقود قبلها، وإحياء لعقيدة دينية قديمة لدى اليهود، بل لدى فريق مهم من النصارى أنفسهم، حتى قبل أن تولد الأصولية «المسيحية» بزمن طويل؛ فمثلاً: «فرسان المعبد» الذين أعلنوا عن أنفسهم في القدس في العام ١١١٧م، واستقروا قرب ما يُسمونه «معبد سليمان» كان لهم شغفٌ بالبحث في العقيدة اليهودية «الباطنية» والتنقيب تحت وحول «الهيكل» المزعوم، وإلى مِثل هذا يشير الكاتبان البريطانيان كرستوفر نايت وروبرت لوماس بالقول[٣]: إنَّنا «نملك أدلة قوية على قيام «فرسان المعبد» بحفريات كثيرة قرب خرائب معبد «هيرود»[٤] مضيفين: «إنَّ البحوث والحفريات التي قام بها فرسان المعبد قرب خرائب معبد سليمان لم تذهب هباءً، بل حصلوا على أشياء معيَّنة كانت كافية لتغير نظرتهم في الحياة.. لقد توصلوا إلى «كابالا» Cabala[٥] أي: توصَّلوا إلى فرع من فروع الباطنية اليهودية السرية، فانحرفوا عن عقيدتهم المسيحية»[٦].

(١) تعود تسمية "الحركة الصهيونية" إلى أحد ألقاب جبل صهيون في القدس كما ورد في «سفر إشعياء».

(٢) موسوعة المصطلحات الصادرة عن «المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية»، مدار: ٥٠٠٠ آلاف مصطلح إسرائيلي.

(٣) في كتابيهما «مفتاح حيرام».

(٤) الماسونية وفرسان المعبد – قصة الإسلام - لأورخان محمد علي، نقلًا عن كتاب هارون يحيى: الماسونية العالمية Harun Yahya Global masonluk Kultur yayclk. Ist. ٢٠٠٢. – نقلًا عن Christopher Knight and Robert Lomas The Hiram Key Arrow Books ١٩٩٧. ص (٣٧).

(٥) الكابالا مأخوذة من الكلمة العبرية قبل، أي أن الكهنة اليهود قد قبلوا تلك العقيدة، وهي عبادة الشيطان الذين يعتبرون أنه تعرض للظلم -تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا - ويتعاطون السحر والشعوذة، والكابالا مليئة بالرموز السحرية والطلاسم وغيرها وهي دين الماسونية المتبع.

(٦) الماسونية وفرسان المعبد – مصدر سابق.

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

ما سرُّ العلاقة بين الكيان الصهيوني والغرب؟ على الصعيد السياسي، يمكن الإجابة ببساطة أنَّ كلاً منهما يخدم الآخر، لكن السؤال الأصعب هو في ماهية الدافع وراء هذا التخادُم، خصوصًا حينما تكون فاتورة هذه العلاقة باهظة الثمن في بعض الأوقات، أهي العقيدة أم المصالح الدنيوية؟

أثر دعوة مارتن لوثر في قيام دولة اليهود:

وبين هذين التاريخين السابقين كانت أهم محطة على الإطلاق تأثيرًا في انطلاقة اليهود نحو فلسطين، هي دعوة القس مارتن لوثر، مؤسس البروتستانتية الأشهر، والذي حوّل دفَّة معاملة اليهود في أوروبا من الاضطهاد والانتباذ والاحتقار إلى التطبيع والتسييد، وأسهم بقوة في جعل دعوات ما يُسمّى بـ «معاداة السامية» في أوروبا تندثر شيئًا فشيئًا مع إطلاق دعوته للبروتستانتية[(١)]، والتي دافع من خلالها عن اليهود، ودان اضطهادهم الديني، بل بالغ إلى حدِّ قوله في كتابه «المسيح وُلد يهوديًا»: «إننا كالكلاب [أي النصارى] الذين لا مكان لهم سوى تحت المائدة لالتقاط الفتات الذي يتساقطُ من على موائد أربابنا اليهود، وإنَّ ذلك هو أمرٌ حدَّدتُه طلاقةُ القدرةِ الإلهية منذُ القِدَم، فهم السادةُ ونحن العبيد»[(٢)]، من ثم حصل تحوُّلٌ جذريٌّ في أوروبا حين اعتنقت شعوب منها كالألمانية والإنجليزية (ثم كثير من الأمريكيين) البروتستانتية بفروعها المختلفة، حيث آمنت بأنَّ قيام دولة «إسرائيل» مسألةٌ دينيةٌ تُجسِّد نبوءات التوراة، وعليه ارتأت شعوبها وحكوماتها اللاحقة أن من واجبها الدفاع عن اليهود، وما يُدَّعى من حقٍّ

(١) الكلمة في أصلها اللاتيني مشتقة من «بروتست» «proteste» بمعنى الاحتجاج والاستشهاد من أجل شيء، ينظر د. مريم بنت بنيان الحربي/البروتستانتية وأثرها على العالم الإسلامي ص (٢)، وأصل الاحتجاج كان على قرار مؤتمر ورمس الذي قرر طرد لوثر من الكنيسة، وهي اصطلاحًا مذهب نصراني يدعو إلى العودة المباشرة إلى جذور التوراة والإنجيل دون الحاجة إلى فهم القساوسة والوسطاء.

(٢) مارتن لوثر واليهود، للدكتور: راجح إبراهيم السباتين، ص (١٦).

لهم بوطنٍ قومي في فلسطين كـ «أرض المعاد» التي عمل لوثر على إحياءً التفكير بها حين والى اليهودَ ابتداءً. ثم حتى حين عاداهم في أواخر حياته وألّف كتابه «نفاق اليهود»، فـ «أرض المعاد» في تقدير أتباع لوثر من البروتستانت هي لهم «تكريمًا» أو «نفيًا» عن المجتمع النصراني في أوروبا، كما في فكر الذين آمنوا بما كتبه لوثر في آخر أيامه نقدًا لليهود، ومثلهم الكاثوليك الأوروبيون أيضًا الذين لا يحبِّذون بقاءَهم في أوروبا.

انطلاق دعوة مارتن لوثر بدءًا من العام ١٥١٧م، صنعت البيئة الملائمة لاستيلاد الحلم الصهيوني في عودة اليهود إلى «أرض المعاد»[١] (فلسطين)؛ فما بين هذا التاريخ ومؤتمر بازل ١٨٩٧م الذي مهَّد للهجرة اليهودية إلى فلسطين بمساعدة أوروبية، كان اليهود قد حرثوا الأرض الأوروبية لتقبُّل تبني الدعوة لتهجير اليهود إلى فلسطين، وطرد أهلها منها بحوافز مختلفة، منها التخلصُ من فقرائهم بحيث لا يمثِّلون عبئًا على الأوروبيين، وبقاؤهم حاجزًا يقطع أوصال العالم الإسلامي... إلى غير ذلك من الحوافز.

قبل لوثر كان اليهود مضطهَدين في أوروبا، «وقد كان هذا الاضطهاد نتيجةً لمجموعة من العوامل أولها: تحميل الكنيسة لليهود المسؤولية التاريخية عن قتل المسيح. وأما العامل الثاني فكان عاملاً اجتماعيًا اقتصاديًا تمثّل في تعامل اليهود بالرِّبا وبُخلِهم الشديد وسعيِهم الدائم للتحكم الاقتصادي بالمجتمعات المسيحية التي يعيشون فيها»[٢]، وقد انحسر هذا الاضطهاد تدريجيًا بعد دعوة لوثر التي طار بها اليهود، وساهموا بطباعة كتابه «المسيح ولد يهوديًا» وترجمته للغات الأوروبية، بل عُد كتاب لوثر هو بداية التأثير الفعلي للطباعة في أوروبا قبل نشأة

(١) التسمية لهم بطبيعة الحال، كبروتستانت وصهاينة فحسب.
(٢) مارتن لوثر واليهود، للدكتور: راجح السباتين، ص (١).

العوامل التي أسهمت في دعم الصهيونية لإقامة دولتهم

١ قوة الاقتصاد اليهودي، القائم على الربا، ودور ذلك في دعم مشروع الدولة

٢ رغبةُ يهود غرب أوروبا الأثرياء نسبيًا في منع هجرة يهودِ شرقها المضطهدين إلى غرب أوروبا

٣ حماسة أمراء ونبلاء أوروبا لتهجير اليهود إلى فلسطين من أجل التخلص من نفوذهم الاقتصادي

٤ انقسام اليهود بين فكرة الاندماج الفاشلة في أوروبا، وفكرة الهجرة التي رجَحت كفَّتُها مع الدعوة الصهيونية

إلى جانب البعد الديني المتمثل في اعتبار فلسطين هي أرض المعاد المحققة للثراء التي وعدوا بها في التوراة

الصحف[١]. يقول د. محمد المختار الشنقيطي: «ومن الواضح أنَّ مارتن لوثر لم يكن يُدرك قيمة الأفكار التي طرحها، وأثرها التاريخي الآتي، وخصوصًا فكرة «كون المسيح ولد يهوديًا» التي طوَّرها أتباع لوثر من رجال الدين البروتستانت حتى أصبحت تعني عندهم اليوم من ضمن ما تعنيه:

» أنَّ اليهود هم أهل المسيح وعترته، فلهم ذمةٌ وحُرمةٌ خاصةٌ بسبب ذلك، تقتضي دعمَهم وخدمتهم و«تطييبَ خواطرهم» كما ورد في العهد القديم.

» أنَّ اتهام اليهود بسفك دم المسيح ليس واردًا، كيف وهم أهل القرابة والرحم. وكل نصوص الإنجيل الواردة في ذلك يجب تأويلها أو ردها.

(١) طبع كتاب «المسيح ولد يهوديًا» لمارتن لوثر ٥ طبعات في سنة نشره ووزع بالآلاف في دول أوروبا.

الفهرس

» أنَّ اليهود «أبناءَ الرب» -هكذا يقول المسيحيون الصهاينة اليوم حرفيًا- شأنُهم شأنُ المسيح الذي هو ابن الله عند المسيحيين (تعالى الله عن ذلك).

» أنَّ اليهود هم الشعب المختار -كما يقولون عن أنفسهم- ولا بدَّ من قبول ذلك، والقول بأن المسيحيين احتلوا تلك المكانة بمجيء المسيح قول مردود»[1].

انطلاق دعوة مارتن لوثر بدءًا من العام ١٥١٧م، صنعت البيئة الملائمة لاستيلاد الحلم الصهيوني في عودة اليهود إلى «أرض المعاد» (فلسطين)؛ فما بين هذا التاريخ ومؤتمر بازل ١٨٩٧م الذي مهَّد للهجرة اليهودية إلى فلسطين بمساعدة أوروبية، كان اليهود قد حرثوا الأرض الأوروبية لتقبُّل تبني الدعوة لتهجير اليهود إلى فلسطين، وطرد أهلها منها بحوافز مختلفة

بعد لوثر ارتسمت معالم عُلوِّ اليهود الكبير، صحيحٌ أنه اصطدم بصخرةٍ كاثوليكية لم تتكسَّر إلا بعد نحو خمسة قرون، حين وُضعت وثيقة بابوية سنة ١٩٦٥م على يد مهندسها كارلو فوتييلا (أو يوحنا بولس الثاني فيما بعد) وهي التي اعتبرت «وثيقة تبرئة اليهود من دم يسوع المسيح»، حيث جعلت الوثيقة اليهود هم أهل المنحة التي أعطاها لهم الرب -بزعمهم- وهي أرض كنعان (فلسطين)، وبحسبها فإنَّ المسيح تجسد

(١) الصهيونية المسيحية والسياسة الأمريكية،للدكتور: محمد بن محمد المختار الشنقيطي، ص (٥).

فيه اليهود كما بقية اليهود[١]، وهو المنطق ذاته الذي أسس عليه مارتن لوثر كتابه «المسيح ولد يهوديًا»، المتقدِّم ذكره.

العوامل الرئيسة في قيام دولة اليهود:

في تلك القرون المتطاولة، وبعد طفرة «تطبيع» العلاقة «المسيحية/اليهودية» في أوروبا بدرجة ما، لم تهدأ دعوات ما يُسمى بـ «معاداة السامية»، لكنها ظلت أقل حدةً بكثير مما سبق نشأة البروتستانتية.. تَعَبَّدَ الطريق تدريجيًا لقبول -بل الحماسة- لإنشاء «مملكة الرب» في «أورشليم» (القدس)، وقد عبّدته عوامل مهمة، منها:

» قوة الاقتصاد اليهودي، القائم على الربا، ثم نشر الموبقات الأخرى: ورغم أنَّ اليهودِ كانوا يتعاطَون الربا قبل البروتستانتية، وضاعف بعضهم ثرواته بسبب هذه الكبيرة التي كانِ يُحرِّمها النصارى، «وَأَقْرَضَ بالرِّبا وأَخذَ رِبْحًا حرامًا، أَفَيَحيا؟ إنهُ لا يَحيا! لأنهُ اقتَرَفَ جميعَ هذهِ المُوبِقاتِ فإنَّهُ حَتمًا يَمُوتُ، ويكونُ دمُهُ على رَأسِهِ»[٢]، إلا أنهم زادوا من نشاطهم الربوي بعد تراجع دعوات ما يُسمى بـ «معاداة السامية» في أوروبا. لقد أتاح تحريف اليهود لشريعتهم بسماحه لهم بالتعامل بالربا مع الأمميين (غير اليهود) أن تتضخم ثرواتهم؛ فأصبحوا قوة اقتصادية هائلة في أوروبا، وحينما خطب لوثر وُدّهم تمكنوا من إشاعة أفكاره لحدٍّ جعلها تطغى على غيرها في مدة وجيزة في كل من ألمانيا وبريطانيا، وبالتالي التمهيد لعصرٍ جديدٍ يعلو فيه اليهودُ بقوةٍ في أوروبا، وسيستغلُّ ذلك غيرُ المتديِّنِ تيودور هيرتزل في دعوته للصهيونية، والترويج لها، وتجميع التبرعات

(١) يراجع: تبرئة اليهود من دم المسيح، ردًا على سؤال حول ذلك، موقع كنيسة الإسكندرية للأقباط الكاثوليك، القس د. يوأنس لحظي جيد.

(٢) سفر حزقيال (١٨/١٣).

من أصحاب الثروات الضخمة من اليهود لإنجاز مشروعه بالهجرة اليهودية إلى فلسطين.

» رغبةُ يهود غرب أوروبا الأثرياء نسبيًا (الأشكناز) في منع هجرة يهودِ شرقها الذين يُعانون الاضطهاد في تجمعاتهم الكبيرة نسبيًا في بولندا وأوكرانيا وروسيا وغيرها إلى غرب أوروبا، ما أوجد مخرجًا ليهود الغرب لتهجير يهود بولندا وأوكرانيا وروسيا إلى فلسطين تحت لافتة دينية، وهي الهجرةُ إلى «أرض المعاد» بدلاً من هجرتهم إلى غرب أوروبا، بما سيؤثر سلبًا على مصالحهم ونفوذهم وسمعتهم المالية، ولهذا رأى الأشكناز في هجرة «الفقراء المضطهدين» فرصةً للتخلص منهم[١]، يقول هيكل: «كان منطق هيرتزل في كتابه بسيطًا[٢] إلى درجة تبعث على القلق، وعرض هيكل أسسًا كان منها: أنَّ اليهود الفقراء القادمين من الشرق سوف يكونون مصدر إزعاجٍ وقلقٍ لليهود الأثرياء الذين استقروا في غرب أوروبا»[٣].

» حماسة بعض الأمراء و«النبلاء» في أوروبا لفكرة تهجير اليهود (بكل تنوُّعاتهم) إلى فلسطين، بعد أن ضاقوا بهم ذرعًا، مع تضخُّم ثرواتهم، وبُخلهم، وبدئهم في الظهور قوةً اقتصاديةً يمكن أن تُهدد عروشهم وامتيازاتهم لاحقًا.

» الانقسام الحاصل لدى اليهود ما بين فكرة الاندماج الفاشلة في المجتمعات الأوروبية، والتي ثبت عدم واقعيتها، وفكرة الهجرة التي رجَحت كفَّتُها مع دعوة هيرتزل للصهيونية

(١) يراجع: السياسة السوفيتية بشأن فلسطين، لأرنولد كرامر، ١٩٤٧-١٩٤٨، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد الثاني، رقم ٢، شتاء ١٩٧٣، ص (١٠٩)، ويراجع أيضًا: أفكار بسيطة بشأن معاداة السامية، لمكسيم رودنسون، مجلة الدراسات الفلسطينية، خريف ٢٠١٩م.

(٢) كتاب «الدولة اليهودية».

(٣) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل - الأسطورة والإمبراطورية والدولة اليهودية، لمحمد حسنين هيكل، ص (٦٧).

والهجرة إلى «أرض المعاد»، إذ اعتقد هرتزل أنه يجب على اليهود الانسحابُ من أوروبا، ورأى أنَّه من العسير تجاوز النظرة الدونية التي يُكنُّها الأوروبيون لليهود، فيما عُرف بـ«معاداة السامية»، ولم يجد حلاً شافيًا سوى إنشاء دولة يهوديه.

> **كان الدافع لدى قطاعات من اليهود دينيًا في اختيارهم لفلسطين، وأيضًا كذلك طمعًا فطريًا يهوديًا في تحقيق الثراء، إيمانًا بما تبشرهم به توراتُهم بأنها الهجرة إلى «أرضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً»؛ فإن دافع ساسة أوروبا لإقامة وطنٍ لليهود في فلسطين كان في جوهره يدورُ حول كسر ظهر المسلمين**

غير أنَّ «إسرائيل» لم تكن مَحضَ مشروع تأسَّس على عقيدة صهيونية فحسب، بل كانت في جوهرها كذلك مشروعًا «استعماريًا»، رَنَت من خلاله دُولٌ غربية إلى شقِّ الجسد الإسلامي، وإقامة أكبر قاعدةٍ عسكريةٍ لها في قلب العالم الإسلامي كله.

ولهذا فقد كانت ثمةَ مشاريع عدة لإقامة دولةٍ لليهود في أماكن عدّة، واقترح مؤتمر بازل إحدى هذه المناطق لإقامة تلك الدولة: فلسطين، أو الأرجنتين، أو أوغندا، وتقول مصادر إنَّ منطقة الخزر (قزوين) التي شهدت وجود دولة لليهود قبل ٨ قرون، كانت هي الأخرى مرشحة لقيام دولة يهودية.

اختيرت فلسطين فيما بعد، لا لكونها تمثل «أرض المعاد» فحسب، وإنما لأنها تمثل حاجزًا استراتيجيًا شديدَ الأهمية

للدول الغربية «الاستعمارية» التي رأتْ في هذا المشروع تحقيقًا لأهدافهم في النيل من القوة الإسلامية، وتحييدها إلى الأبد[١].

وإذا كان الدافع لدى قطاعات من اليهود دينيًا في اختيارهم لفلسطين، وأيضًا كذلك طمعًا فطريًا يهوديًا في تحقيق الثراء، إيمانًا بما تبشرهم به توراتُهم بأنها الهجرة إلى «أرضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً»[٢]؛ فإن دافع ساسة أوروبا لإقامة وطنٍ لليهود في فلسطين كان في جوهره يدورُ حول كسر ظهر المسلمين.

«من نابليون بونابرت القائد الأعلى للقوات المسلحة للجمهورية الفرنسية في إفريقيا وآسيا إلى ورثة فلسطين الشرعيين... عبيد الله سيعودون إلى صهيون وهم يُنشدون، وسوف تعمُّهم السعادة حين يستعيدون مملكتَهم دون خوف. انهضوا بقوة

(١) فقد عارضها كثير من اليهود لاسيما يهود الأرثوذكس، «فاليهودية ترى مشروعية إقامة دولة لليهود ولكن بعد مجيء (المسيح المخلص)، وتنفرد الصهيونية عن بقية اليهود بالدعوة إلى إقامة دولة لليهود قبل مجيء (المسيح المخلص)» من بحث: الشخصيات اليهودية المعارضة للصهيونية، لمهند القصير، عرض وتحليل، المجلة العربية للدراسات الإسلامية والشرعية، ص (١٦٦)، ويقول القصير: «ظهرت المعارضة اليهودية للصهيونية متزامنة مع ظهور الصهيونية، وقد برزت بوضوح عندما قام هرتزل بدعوة اليهود إلى مشروعه حيث قام المعارضون بالرد عليه بالبيانات والاحتجاجات وعدم الاستجابة لندائه حتى سماهم (حاخامات الاحتجاج)، ويمكن أن يقال إنها تحديدًا انطلقت من معارضة حاخامات ألمانيا لعقد المؤتمر الصهيونى الأول فى ميونخ بألمانية مما دعى الصهاينة إلى نقل مؤتمرهم إلى مدينة بازل في سويسرا، وعقب عقد المؤتمر الصهيوني الأول بادرت هيئة حاخامات الألمان إلى إصدار بيان تحتج فيه على الصهيونية، وفي عام ١٨٩٧م عقد المعارضون مؤتمر مونتريال رفضوا وأدانوا فيه الصهيونية»، وينظر: تشريح العقل الإسرائيلي، للسيد ياسين، ص (٩٧)، و:الشخصيات اليهودية المعارضة للصهيونية، لمهند القصير، ص (١٧٤)، ويقدر د. ياكوف م. رابكن في كتابه: المناهضة اليهودية للصهيونية ص (٧) أعدادهم بمئات الألوف، الشخصيات اليهودية المعارضة للصهيونية، لمهند القصير، ص (١٧٥)، وهو عدد كبير بالنظر إلى أعداد اليهود الصهاينة يومئذ، ودافعهم لهذا هو ما يرجع إلى إيمان هؤلاء بأن «الخلاص سيأتي اليهودَ من الله وليس من البشر»، فبحسب شمشون روفائيل هيرش زعيم اليهود الأرثوذكس في ألمانيا في حوار له مع صحيفة واشنطن بوست ٣٣أكتوبر١٩٧٨م: «فلقد تلقى اليهود الرسالة من الرب، لئلا يفرضوا عودتهم إلى الأرض المقدسة ضد إرادة من يسكنونها، فإن فعلوا ذلك فإنهم يتحملون نتائجه، والتلمود يقول: إن هذا الانتهاك سوف يجعل من لحمكم فريسة للسباع في الغابة. إن المذبحة الكبرى نتيجة من نتائج الصهيونية» فلسطين أرض الرسالات، لرجاء جارودي، ص (٢٣٤)، الشخصيات اليهودية المعارضة للصهيونية، لمهند القصير، ص (١٧٨).

(٢) سفر الخروج (٣٣: ٣).

أيها المشردون في التيه... إنَّ فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل»[١].

إنه نداء نابليون إلى يهود العالم بعد فراغه من احتلال مصر واتجاهه نحو أرض فلسطين. يقول الكاتب محمد حسنين هيكل: «إنَّ نابليون بونابرت لم يكن يهوديًا ولا كان مواليًا لليهود، والعكس هو الصحيح... إن التفسير الصحيح –والحوادث اللاحقة شاهد– هو أنَّ هذه الورقة كانت «رؤية»، وهي لم تكن «رؤية نبي»، وإنما كانت رؤية امبراطور يملك حسًا استراتيجيًا نابهًا وبعيدًا»[٢].

والحس الاستراتيجي هذا دفعه إلى الاعتقاد بأن ضلعي الزاوية مصر وسوريا قادران على محاكاة ما حصل في الحروب الصليبية الأولى (نور الدين زنكي / صلاح الدين) في الخروج من سيطرة «الاستعمارين» الفرنسي والبريطاني، وإقامة مشروع مستقل. ولهذا «فإنه يزرع عند نقطة التقائهما أي عند مركز الزاوية، شيئًا آخر لا هو عربي ولا هو إسلامي ... وبها فقد ينشأ وطن يهودي يكون ضمانًا إضافيًا إذا أمكن، ويكون عازلاً إذا اقتضت الضرورات!»[٣].

على خطى نابليون سار اللورد بالمرستون رئيس وزراء بريطانيا، وقد حفزه إلى تنفيذ مشروع الدولة اليهودية شروعُ محمد علي في إعادة بناء وحدةٍ قويةٍ بين مصر والشام بعد هزيمته للقوات العثمانية، فرُغم ما أحاط بمحمد علي من غموضٍ حول توجهات وولاءاته وعلاقاته بفرنسا، إلا أنَّ فرنسا وبريطانيا لم يكونا ليَسمحا بوحدةٍ تمتدُّ من مصر حتى الأناضول مرورًا بالشام، لا تحت السيادة العثمانية، ولا

(١) المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل، ص (٣١).
(٢) المصدر السابق، ص (٣٤).
(٣) المصدر السابق، ص (٣٧).

تحت سيطرة محمد علي؛ فأُرغم عُنوة على الرجوع إلى مصر ومغادرة الشام، والانعزال داخل الحيِّز المصري. وينقلُ هيكل عن الوثائق البريطانية في تلك الفترة أنَّ أهداف بالمرستون في ذلك الوقت تركَّزت في «مواجهة محمد علي على ثلاث مراحل: إخراجه من سوريا، واحتواؤه في مصر، وإنشاء عازل حاجز بين البلدين»[١]، وهذه الأهداف كانت من اقتراح روتشيلد[٢] في خطاب موجه إلى بالمرستون بتاريخ ٢١ مايو ١٨٣٩م يشبِّه فيه مصر بالزجاجة، وسيناء بعنقها، وفلسطين بسدادة الفلين، التي تسد قوة هذا الجسد الكبير.

كتب هيرتزل كتابه «الدولة اليهودية» في العام ١٨٩٦م، في البداية كخطاب لآل روتشيلد سعيًا لإقناعهم بإقامة دولة يهودية ذات سيادة، ثم تبلورت الفكرة لعقد مؤتمر بازل لجمع كلِّ الحالمين بإقامة تلك الدولة، ودشن بعدها «الحركة الصهيونية»، وأُقيمت الوكالةُ اليهودية لجمع التبرعات لتكريس الجهود نحو الهجرة. وكانت فكرة الكتاب تدور حول أنَّ الكل رابح:

- «اليهود الأغنياء: سيتخلَّصون من عِبء مُزاحمة فقراء يهود شرق أوروبا لهم في غربها.
- الدول الأوروبية: ستتخلَّص من نفس العبء حيث يمكن دمج أغنياء اليهود فيما لا يمكن دمج فقرائهم بسهولة أو تقبُّلهم في أوروبا.
- اليهود الفقراء: سيُهاجرون إلى الأرض الموعودة التي «تفيض لبنًا وعسلاً».

وقد تحرَّك المؤتمر في اتجاهاتٍ مختلفة، أهمُّها الدولة العثمانية، حيث عرض هيتزل ٢٠ مليون جنيه استرليني (٢ مليون لشراء

(١) المصدر السابق، ص (٤٠).
(٢) أحد أكبر أثرياء العالم، وأسرته لم تزل مؤثرة جدًا في السياسة والاقتصاد العالميين حتى الآن.

أراضي سلطانية في فلسطين، و١٨ مليون لسداد ديون الدولة العثمانية للبنوك اليهودية! التي كانت تقيِّد الخلافة بديونها).

لكن جهود هيرتزل فشلت في اسطنبول، فكانت الوجهة الموازية هي الناجحة، بريطانيا، لكن ليست على يديه، بل على يد رفيقه في الدعوة للصهيونية، رئيس وزراء «إسرائيل» لاحقا حاييم وايزمان الذي حصل إثر جهود متراكمة على «وعد بلفور» ١٩١٧م من الحكومة البريطانية، التي كانت تحتلُّ فلسطين في ذلك الوقت.

كتب هيرتزل كتابه «الدولة اليهودية» في العام ١٨٩٦م، في البداية كخطاب لآل روتشيلد سعيًا لإقناعهم بإقامة دولة يهودية ذات سيادة، ثم تبلورت الفكرة لعقد مؤتمر بازل لجمع كلِّ الحالمين بإقامة تلك الدولة، ودشّن بعدها «الحركة الصهيونية»، وأُقيمت الوكالةُ اليهودية لجمع التبرعات لتكريس الجهود نحو الهجرة

كان البريطانيون متشبِّعين بالاستراتيجية الفرنسية البونابرتية، المؤمِنة بضرورة وجود حاجز يفصل ما بين دولة الخلافة (تركيا) ومصر عبر الشام، ولم يكونوا ليتركوا الأمور لـ«المصادفة» بعد أن زحف جيش محمد علي في العام ١٨٣٩م لينتصر في معركة نصيبين على الجيش العثماني ويستولي على قونية وكوتاهية ويقترب من إسطنبول، حيث لم يكن مقبولاً لديهم أن تخضع مصر لتركيا أو تخضع تركيا لمصر والشام فيما بينهما، مهما كان الحاكم.

تُدرك بريطانيا وغيرها من «الدول الاستعمارية» أنَّ الخلافة العثمانية لم تقم بالأساس إلا بعدما فتح السلطان سليم الأول مصر بعد انتصاره على سلطان المماليك طومان باي في معركة الريدانية عام ١٥١٧م، حينها تحولت الدولة العثمانية من «سلطنة» إلى «خلافة»، وظلت لثلاثة قرون تمثِّل قوةً مرهوبةً حتى أوهَنَتْها عوامل كثيرة، كان من بينها هجوم محمد علي عليها، ولم يكن الأوروبيون ليقبلوا تجديد شباب تلك الدولة بخلافةٍ يقودها محمد علي هذه المرة، رغم كل علاقاته المشبوهة بالفرنسيين، ودور «الدول الاستعمارية» في تمرُّده على الدولة العثمانية بادئ الأمر.

هنا زُرعت «إسرائيل» لئلا تتكرَّر أيُّ «مغامرةٍ» لتوحيد العالم الإسلامي انطلاقا من قلبه في تلك المنطقة الاستراتيجية، عبقرية الجغرافيا والتاريخ (تركيا، الشام، مصر). قام المشروع الصهيوني بإرادةٍ أوروبيةٍ، ثم أمريكيةٍ لاحقًا، وتم تبنِّيه والدفاع عنه مرارًا من أجل هذه الوظيفة الكبرى: عزل العالم الإسلامي، شرقِه عن غربِه، شمالِه عن جنوبِه.

ومنذ الفتحِ الإسلامي: ظلَّ البحرُ الأحمرُ بأهميَّته الكبرى بحيرةً إسلامية مُغلقةً محرَّمةً على الدول «الاستعمارية»، ومن قبلِها الحملات الصليبية، وقد حال حُكَّام مصر جميعًا من المسلمين على مرِّ العصور من أن تتسبَّب التجارة عبر البحر الأحمر بالسماحِ لسفن غير المسلمين في العبورِ من هذا البحر بين أوروبا والهند، حمايةً لمقدَّسات المسلمين، إلى أن شُقَّت قناة السويس وتم تدويل البحر، حتى قبل إنشاء ما يسمى بدولة «إسرائيل»، وبدأت بريطانيا تحديدًا في تبني المشروع الصهيوني، باحتلال فلسطين أولاً ثم السماح لليهود بالهجرة، ولعصاباتهم بالتسلح، وللفيلق اليهودي في الجيش البريطاني[1] بحماية عملية

(١) بعد أيام من إطلاق وعد بلفور احتل الجيش البريطانى بقيادة إدموند ألّنبى القدس ودخل مع جيشه فيلق يهودي تم تدريبه بتوجيه من وزير المستعمرات البريطاني وينستون تشرشل، وكان من أعضاء هذا الفيلق ديفد بن غوريون أول رئيس وزراء «إسرائيلي»، فيلق يهودي في القدس بعد وعد بلفور/الجزيرة نت – ١ نوفمبر ٢٠١٧م، تراجع أيضًا دراسة د. عبد الوهاب شاكر: المخططات الصهيونية لإنشاء الفيلق اليهودي.

الترانسفير (التهجير) منذ أن دنَّست أقدام اليهود الصِّهاينة الأرض التي باركها الله سبحانه وتعالى. سمحت بريطانيا بتدفُّق عددٍ مكافئ من اليهود لسكان فلسطين من المسلمين تقريبًا، وغضت الطرف عن تولّي عصابات هوشيمير أولاً (١٩٠٩م)، ثم الهاغانة (١٩٢٠م) ثانيًا، وأرغون (١٩٣٧م) ثالثًا، وشتيرن (١٩٤٠م) رابعًا، تهجير المسلمين (الفلسطينيين) قسريًا باستخدام سياسة الأرض المحروقة، وبارتكاب المجازر واحدةً تِلو الأخرى، إلى أن تغوَّلت تلك العصابات، وأُضفيت عليها «الشرعية» الدولية بصدور قرار تقسيم فلسطين (١٩٤٧م).

أقيمت الدولة الصهيونية في العام التالي، وكان الاعتراف الأمريكي والأوروبي سريعًا، عملت القوى الغربية على رعاية «إسرائيل» في جميع المجالات، لاسيما العسكري، وعملت دومًا على اضطلاع الكيان الصهيوني بدوره الذي أنيط به منذ البداية: إحلال الوهن في الجسد الإسلامي، فسلكت «إسرائيل» العديد من السياسات من أجل تجسيد هذا الهدف على أرض الواقع، واتَّخذت في سبيل ذلك العديد من السبل، منها الحروب، واتفاقاتُ السلام والتطبيع، وإقامةُ المشاريع المختلفة مع الدول المطبِّعة قصدَ إضعافها، وتطويقُ المحيط العربي والإسلامي في الفضاءات الخارجية الإفريقية والآسيوية، ونشرُ الفساد بأنواعه داخل الدول «المجاورة»، وقتلُ القضية الفلسطينية، ومدُّ نفوذها داخل دواليب الحكم إلى غير ذلك، وُصولاً إلى السعي إلى قيادة المنطقة برُمَّتها.. وهي في طريقها لم تزل تُواجه عقباتٍ كثيرةً، حيث ستستمرُّ سنةُ التدافع مهما بلغ الوهن غايته في المحيط الإسلامي.. يتواصل المشروع تقدمًا، وتتواصل المقاومة جُهدًا وجهادًا.

دعوة

ولاية الأب في تزويج ابنته: بين التسوية والأحكام الشرعية

أ. هدى عبد الرحمن النمر

كاتبة ومؤلّفة ومتحدِّثة في الفكر والأدب وعُمران الذات

الفهرس

مسألة السلطة والسلطان من أخطر أركان الاجتماع البشري، إذ منها يبدأ حفظ المصالح أو نشر الفساد، ويُعدُّ التنازع والتناحر فيها أشد خطرًا لأنه يمنع من حفظ المصالح ويفتِّح أبواب الفساد، وإن تَصوُّر السلطة والسلطان في الوسط الأُسري فرعٌ عن هذا التصوُّر الأكبر، فهو ينسجم في تصوّره وأحكامه مع الفطرة السوية، إذ يصدر كلاهما من مشكاة واحدة، والفطرة السوية للوالدين تجعلهما أحرص الناس على أولادهما وأشفقهم بهم وأرعاهم لمصالحهم، وولاية التزويج من فروع هذه الولاية.

تندّد النسوية بمبدأ ولاية الآباء على البنات في التزويج، وبالذات تزويج «الصغيرة»، والحق أنّه ليس في التصوّر الشرعي إجماله وتفصيله ما يجعل الفتاة «خروفًا يُساق قهرًا للمذبح»، على ما تدّعي كثير من أدبيات النسوية في تشبيهاتها؛ وإنما سبب تصوير المسألة على هذا النحو هو الممارسات الخاطئة والمخالفة شرعًا، بالتوازي مع أجندة إعلامية وثقافة درامية مليئتين بالمغالطات لدى المعترضين. والسطور التالية تهدف لتحليل مكامن الخلل في هذه الدعوى.

مفهوم الولاية فى التصور الشرعى:

مسألة السلطة والسلطان من أخطر أركان الاجتماع البشري، إذ منها يبدأ حفظ المصالح أو نشر الفساد. ويُعدُّ التنازع والتناحر فيها أشد خطرًا لأنه يمنع من حفظ المصالح ويفتِّح أبواب الفساد، حتى جرى المثل بمقولة «المركب ذات الريّسين تغرق» أو «كثرة الطباخين تفسد المرق».

وفي الحديث: عن نافع عن أبي سلمة عن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: (إذا كان ثلاثةٌ في سفر فليؤمروا أحدهم). قال نافع: «فقلنا لأبي سلمة: فأنت أميرنا»[1]. والقصد بالإمارة

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٠٩).

هنا إمارة حقيقية تُلزِم البقية بالسمع والطاعة المرهونتين بكونهما في الحق، قال الشارح: «فيه دليل على أن الرجلين إذا حكَّما رجلاً بينهما في قضية فقضى بالحق فقد نفذ حكمه»[1]، فاختيار ذي السلطة (حيث كان ثمة اختيار) واتباعه أو الامتناع عن ذلك كله مرهون باتباع الحق.

ويمتاز التصور الشرعي للسلطة عمومًا بمجموعة مميزات تجعل له الأحقية التامة وتكفل له الاستعلاء على ما عداه من تصورات:

١. انسجام التصور الشرعي مع الفطرة الإنسانية، فالتكليف والطاقة (الوُسع) من مشكاة واحدة وإلى مردّ واحد.

٢. كفاية الناس مؤنة التناحر في ترتيب شؤون الرياسة والأتباع في مختلف السياقات، فقد عَرَّفت الشريعة أهل السلطان وحدود السلطة والطاعة والعصيان والظلم ...، وذلك في مختلف المقامات والمراحل العمرية. فسلطان الآباء على الأبناء –مثلاً– تختلف صلاحيته وحدوده ومظاهر ممارسته بحسب الجنس والفئة العمرية وعوامل أخرى موضّحة في مواطنها.

٣. سنّ الله تعالى سنّة السلطان كما سنّة التسخير، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢]، فامتنعت بذلك الحرية المطلقة على بني آدم في هذا الوجود. ولذلك لم يقدر أحد حتى اليوم على التملص منها مهما ادّعى تحرره بنبذ سلطان الدين وعبودية الله، فتجده قطعًا عبدًا لغير الله تعالى وتابعًا لسلطانٍ سواه.

ثم إن تَصوُّر السلطة والسلطان في الوسط الأُسري فرعٌ عن هذا التصوُّر الأكبر، فهو كذلك ينسجم في تصوّره وأحكامه مع الفطرة السوية، إذ يصدر كلاهما من مشكاة واحدة. والفطرة

(١) معالم السنن، للخطابي (٢٦١/٢).

السوية للوالدين تجعلهما أحرص الناس على أبنائهما وأشفقهم بهم وأرعاهم لمصالحهم، ولذلك كانت الوالدية نوع قوامة من حيث إن كلا الوالدين يقومان على ذريّتهما بما يصلح أمرها في الدنيا والآخرة في جميع جوانب الحياة: التنموية، والتعليمية، والصحية، وغيرها.

فإذا خصصنا ولاية الأب على البنت في موضوع الزواج، نجد تسلسل التصور يبدأ بجَبْل الرجل على مواصفات الرجولة من الفتوّة والقوّة والمروءة والغَيْرة على العِرض؛ ليُؤهَّل لما كُلِّف به من القيام على حِمَى أهله، بالكفاية والحفظ والصيانة دينًا ودنيا. وخُصَّ لأجل ذلك بدرجة السلطان الشرعي في الأسرة، اللازمة هيبتها لاعتبار رياسته، ومنع التنازع والتناحر القيادي الذي يهدم قوام أي مجتمع (والأسرة مجتمع مصغّر). ثم جُعِل الأب هو الأقدرَ على النظر في حال الرجال بعين الرجولة، والأحقَّ بائتمان ابنته لرجلٍ غيرِهِ سيليه في أمانتها، ومن هنا كان الاعتبار الشرعي لإذن الأب في الزواج أو صلاحيته للتزويج، على اختلافات درجة ذلك الاعتبار وتفاصيله بحسب المتقرر شرعًا.

خُصَّ الأب بدرجة السلطان الشرعي في الأسرة -اللازمة هيبتها- لاعتبار رياسته، ومنع التنازع والتناحر القيادي الذي يهدم قوام أي مجتمع (والأسرة مجتمع مصغّر)، ثم جُعِل الأب هو الأقدرَ على النظر في حال الرجال بعين الرجولة، والأحقَّ بائتمان ابنته لرجلٍ غيرِهِ سيليه في أمانتها، ومن هنا كان الاعتبار الشرعي لإذن الأب في الزواج أو صلاحيته للتزويج، على اختلافات درجة ذلك الاعتبار وتفاصيله بحسب المتقرر شرعًا

بناء على فهم أصل التصوُّر هذا يتَّضح أنَّ مكمن الخلل يبدأ من الجهل به جملة وبأحكامه تفصيلاً، ثم مما قد يعتري فطرة الوالديّة من اضطراب أو تشوّه بسبب عُقدٍ دفينةٍ من آثار التربيات السابقة، فضلاً عن بعض أساليب التربية الخاطئة التي تقوم في غالبها على التعنيف والتسلُّط(١)، وتخلو في كثير منها عن خشية الله تعالى واتّقائه في الأنفس التى اؤتمن عليها. فهل كان عجبًا بعد ذلك أن تضطرب ممارسات الوالدية اليوم كل مُضطَّرَب، وأن تتسع الفجوات بين الأبناء ووالديْهم حتى تصل للبغض والعداوة والقطيعة؟ أو كان إنصافًا أن يُلام التصور الشرعي الكامل والمتكامل على نقصان العلم به من المُنتسبين إليه، ويُجتَرأ على الدين بسبب جرائر بعض المتدينين؟!

تحرير مصطلح «تزويج الصغيرة» ومكامن النزاع النسوي:

ينتهي الصِّغَر في الشرع بالبلوغ، وتناط بالبالغ بمجرد بلوغه الأحكامُ الشرعية المختلفة، فإذا وصل الشخص سن البلوغ لم يعد طفلاً، بل انتقل عن مرحلة الطفولة وأصبح مكلفًا.

والبلوغ شرعًا يحصل بتحقق علامات البلوغ في الفرد بحسب جنسه، أو بالوصول لمرحلة عمرية معينة إذا لم توجد العلامات، وكلاهما عيّنه الفقهاء على اختلاف في بعض التفاصيل.

أما التصور النسوي –القائم على الفكر الغربي– للبلوغ المعتبر للتزويج فلا يَعتَدّ بالتصور الشرعي جملة ولا تفصيلاً؛ وإنما يعتبر أن البلوغ المعتبر هو بعد التخرج من الجامعة على أقل تقدير أو بعد تحصيل وظيفة أو بناء مسار مهني «Career» على أحسن تقدير، وهذه التفرقة من أسس النزاع النسوي بالذات مع التصور الشرعي.

(١) لمزيد بيان في التصور الشرعي للتأديب التربوي بمختلف الوسائل ومنها الضرب، يُراجع كتاب: «قرة أعين» للكاتبة.

ثم إنهم يجعلون ما دون سن ١٨ سنة طفولة، وإن ظهرت على الشخص علامات البلوغ!

ثم أساس النزاع الثاني أن النسوية لا تفرّق التفرقة الفقهية بين مرحلتين في التزويج: عَقْد النكاح (ما يسمّى عرفًا كَتْب الكِتاب)، والدخول أو الوَطْء (أي المعاشرة). فالأول هو الذي اختلف فيه الحكم الفقهي في المذاهب الأربعة بين الجواز والمنع، ولكل مدرسة فقهية أدلّتها. أما الثاني فلا يجوز حتى تتحقق شروطه الشرعية المسرودة في المراجع الفقهية.

لذا فإن النسويين عند إطلاقهم مصطلح «تزويج الصغيرة» أو «الأطفال» فإنهم يعنون بذلك غالبًا البنت البالغة شرعًا، وقد يعنون به المعاشرة لا مجرد الخطبة أو عقد النكاح!

فلا بد عند التصدي لهذا الفكر ومزاعمه توضيح أنه لا يوجد «تزويج صغار» أو «تزويج أطفال» بهذا التصور في الإسلام، وإنما هي مصطلحات مضلِّلة لأهداف معلومة[١].

التصوير النسوي لأضرار تبكير الزواج:

تُقسِّم الرؤية النسوية أضرار التزويج المبكر إلى قسمين: الضرر المتعلق بالطاقة البدنية والاستعداد النفسي للمعاشرة الزوجية، والأضرار المتعلقة بحق المرأة في فترة عزوبية تتيح تحصيل «الثلاثية النسوية»: تحصيل الشهادة الجامعية و«الكارير»[٢] والسياحة في الأرض (تحت شعار «رؤية الدنيا أو العالم») قبل التقوقع في قفص الزواج.

أما النوع الأول من الضرر: فمردودٌ عليه بالفعل في التصور الشرعي للمسألة، وهو الذي يشغل الحيز الأكبر في أحكام المسألة كما سبقت الإشارة، وعرَّف فيه الفقهاء الصغيرة، والإطاقة،

(١) ومن الملاحظ أن هذا الفكر يسكت -بل يشرع قانونًا- حرية ممارسة الجنس خارج إطار الزوجية لمن كان في عمر «الطفولة» هذا في البلدان الغربية، بحجة الحرية الشخصية.

(٢) بناء المسار المهني.

والفَرقَ بين عقد النكاحِ والدخول، وحالاتِ الجواز وشروطَها، وحالاتِ المنع وضوابطَها، إلى غير ذلك من التفاصيل التي إذا طُبّقت على الوجه المشروع تحققت المصلحة وانتفت الأضرار. فعندما تقع مشكلة في هذا الجانب، فهي بلا شك ناتجة من تبعيض وتجزئة العلم والتطبيق الخاطئ للتصور الشرعي المـــتكامل، وهذه آفة أمة الإسلام اليوم في كل مناحي الحياة ومسائلها، وحلها ليس في تنزيل تشريع جديد أو قصقصة القائم، بل في تجديد التربية على كامل الإسلام عقيدة وشريعة وأدبًا.

إن التصور النسوي لطبيعة الحياة ومسيرتها هو تصور ضيق، خاص بفئة محدودة من الناس، أما عموم الفتيات في الأوساط التي اعتادت التزويج المبكّر ولم تخالطها درامية التصورات النسوية فقد لا تخطر «الثلاثية النسوية» -تحصيل الشهادة الجامعية، والكارير «المسار المهني»، والسياحة في الأرض- ببالهنَّ من الأساس

أما إذا كان الكلام على حق البنت في الاختيار (وهو النوع الثاني من الضرر): فلماذا تؤيِّد الرؤية النسوية تصرُّف الأب الذي يمنع ابنته الزواجَ ممن ارتضته ورغبت فيه، بحجة أنها ما زالت «صغيرة»، ورغبة في إكمال دراستها الجامعية وبناء مسارها المهني وتكوين ذاتها كما يقال؟! لماذا يعدّ هذا الأب بطلاً في عرف النسوية والآخر شيطانًا، مع أن كليهما يقرر بالنيابة عنها وفق الولاية الشرعية، وبدافع مصلحتها في تقديره؟

ثم من أين جاءت الرؤية النسوية بقطعيّة اختيار الفتاة للثلاثية النسوية على الزواج إذا خُيّرت بينهما؟ إن التصور

مميزات التصور الشرعي للسلطة (ومن ذلك ولاية الأب على ابنته):

١

الانسجام مع الفطرة الإنسانية؛ فالتكليف بالولاية والوُسع الممنوح كلها من الله

٢

كفاية الناس مؤنة التناحر في ترتيب شؤون الرياسة والمسؤولية في مختلف السياقات

٣

سنّة مطّردة لا يمكن الفكاك عنها، وبالتالي لا توجد حرية مطلقة في هذا الوجود

النسوي لطبيعة الحياة ومسيرتها هو تصور ضيق خاص بفئة محدودة من الناس، أما عموم الفتيات في الأوساط التي اعتادت التزويج المبكّر ولم تخالطها درامية التصورات النسوية فقد لا تخطر هذه الثلاثية ببالهنَّ من الأساس. فإن قيل إنها ستتحسّر لاحقًا حين تخالط الدنيا على ما فاتها منها، خاصة في ظل ما بلغته قريناتها من «إنجازات» بينما هي حبيسة الدار والعيال؛ فالرد أن هذا التصور الاختزالي للأمومة وربابة البيت قد تم تفنيده[١]، وأن التحسّر وارد على كل حال -حتى فيمن حققت الثلاثية المزعومة- وأن كل موازنة يحصل فيها مُكتسب ومفتقد بالضرورة.

(١) يراجع مقال: «صراع المرأة بين تحقيق الذات وربابة البيت» المنشور في العدد الحادي والعشرين من مجلة رواء، ومقال: «هل في التصوُّر الشرعي للزواج امتهانٌ لكرامة المرأة؟» المنشور في العدد الثاني والعشرين من المجلة.

الاستشهاد بحديث «زوّجني أبي»:

بناء على ما ترى النسوية أنها رصدته من أضرار التزويج المبكر، راحت تطالب مرة بإبطال صلاحية التزويج للأب في الشريعة، أو تحريم تزويج «الصغيرة»، أو إسقاط ولاية الآباء على البنات بالجملة. ثم جاءت النسوية «المتأسلمة» تؤيد هذه المطالب بصبغةٍ دينيةٍ تتخيَّر أجزاءً من نصوص منتقاة من الأحاديث والآيات، وتتكئ على جانب من جوانب تفسيرها بمعزل عن السياقات الكلية، وبعيدًا عن منهجية جمع النصوص والتوفيق بينها. ومن أظهر ما تستشهد به النسوية «المتأسلمة» أو بالأحرى تقتصر عليه لإثبات حقانية مطالبها، هو هذا الحديث:

عن عائشة ﵂ قالت: «جاءت فتاة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أبي زوجني ابنَ أخيه يرفع بي خسيسته، فجعل الأمر إليها (أي خَيَّرها أن تقبل أو ترفض). قالت: فإني قد أجزت ما صنع أبي، ولكن أردت أن تعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء»[1].

وفي هذا الاستشهاد نظر من وجوه:

- بدايةً، فالحديث من الشهرة بمكان بحيث لم يُغفِل ذكره عالم تناول مسألة التزويج، فهو ليس خافيًا على أهل العلم، وليس اكتشافًا للنسويين! هذه الملاحظة وحدها تُلْجِمِ الدرامية التي تذيع بها النسوية «المتأسلمة» هذا الحديثَ في معرض أيِّ كلام عن التزويج المبكر، كأنما هي التي روته مباشرة عن رسول الله ﷺ، أو وقفت عليه متفرّدة في غفلة من أهل العلم منذ ١٤ قرنًا، فجاءت بتأويل وفهم لم يسبقها إليه سابق! ومن عجب أنها تُغفل في المقابل نماذج زواج السيدتين عائشة وفاطمة عليهما الرضوان،

(١) أخرجه النسائي (٣٢٦٩) وأحمد (٢٥٠٤٣).

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

مع أنهما من حوادث التزويج المبكر المعتبرة، وفيهما من التفاصيل ما اعتنى به الفقهاء وفَرَّعوا بناء عليه أحكامًا. من ذلك ما ذكره النووي رحمه الله: «واعلم أن الشافعي وأصحابَه قالوا: يستحب ألا يزوج الأبُ والجدُ البكرَ حتى تبلغَ، ويستأذنها لئلا يوقِعَها في أَسْرِ الزوج وهي كارهة، وهذا الذي قالوه لا يخالف حديثَ عائشة؛ لأن مرادَهم أنه لا يزوجها قبل البلوغ إذا لم تكن مصلحةٌ ظاهرةٌ يَخاف فوتها بالتأخير كحديث عائشة، فيستحب تحصيل ذلك الزوج؛ لأن الأب مأمور بمصلحة ولده فلا يفوتها»[(١)]، وتفصيل هذا سيأتي.

❊ كذلك أغفَلَت النسوية كل أطراف الحديث وتفاصيله، فيما عدا «لحظة» تخيير النبي ﷺ للفتاة السائلة. منها تفصيلتان بيّنهما أهلم العلم في تأصيل التصور الشرعي للمسألة:

١. ما ورد في الحديث من قول الفتاة «ليرفَعَ خَسِيسَته»:

تقصد أن والدها أراد تزويجها ليرفعِ مكانة ابن أخيه الاجتماعية أو المالية. ومن هذه التفصيلة شَرَط الفقهاء ضِمن ما شرطوا لصحة التزويج أن يكون هدفُه مصلحةَ الفتاة نفسَها، لا لمجرِّد هوى الأب. ولا يمنع ذلك انتفاعَ غيرها بمنافع المصاهرة، ووقتها تكون منفعةً تابعة، لكن القصد ألا يكون تزويجُها على حساب مصلحتها أو بإضرارها هي.

٢. وكذلك قول الفتاة «قد أَجَزتُ ما صَنَع أبي»:

في مشهد لا يتَّفق مع روح النسوية الدرامي، لا نجد «بطلة» الحديث طارت فرحًا «بتحرير» النبي ﷺ لها من «سطوة» أبيها «الظالم» الغاشم! بل صادرت ذلك الكارت الأخضر بنفسها

(١) شرح النووي على مسلم (٢٠٦/٩).

واكتفت بالهدف الرسالي لشكواها تلك (أن تعلم غيرُها من النساء)، ولم تنطلق لترفض الزيجة وتعطي نفسها فرصة «الوقوع في الحبِّ» مع شخصٍ من اختيارها، أو فرصة «تحقيق الذات» بالتصدُّر في عملٍ ما على الساحة المجتمعية لتصير تاجرةً أو «سيدة أعمال» مثلاً! بل فَوّتت على نفسها كل تلك «الفرص الذهبية» النسوية لإثبات أهليتها وجدارتها بوصفها كيانًا إنسانيًّا مستقلاً، وقَبِلت تزويج أبيها لرفع خسيسة ابن أخيه!

والمحصّلة في النهاية بعد كل الإخراج النسوي الدرامي للواقعة أننا أمام تطبيق نموذجي لتزويج فتاة بمعرفة أبيها، ولمصلحة ابن أخيه، بموافقة بطلته التي «حرّرت» النساء من بعدها من سلطان الآباء!

من أين يبدأ الإشكال حقيقة؟

الشاهد من هذا الحديث ويشهد له غيره من الوقائع المطردة في سير السلف بل في سيرة البشرية عمومًا قديمًا وحديثًا، أن تزويج البنت بمعرفة أبيها خاصة ووالديها عامة عرف سائد وعمل طبيعي مقبول بل متوقع، ولا تجد فيه غالب الفتيات غرابة أو أمرًا معيبًا، بل هذا ما يتوقعنه ويرغبن فيه، بغير حزازات وحساسيات؛ فمسألة انفراد المرأة بالرأي والاختيار للزوج، والتصور الرومانسي للتعارف العِشْقي بالتصوير النسوي أو الغربي ليس هو الواقع المثالي ولا الخط العام الذي تسير عليه البشرية، وليس هو الأصلح لها، ولا ترغب غالب الفتيات فيه؛ فغاية ما يهم الأطراف انطباق شروط الكفاءة الشرعية وارتضاء بعضهم البعض بالقدر الذي يُعِين على تحقُّق مقاصد الزواج والعِشرة الطيبة. وكذلك فإن غالب الناس إلى

اليوم منسجمون مع «هُويتهم الجندرية (الجنسية)» ذكورة وأنوثة، فتوقعات كل طرف من الجنس الآخر عطاء وأخذًا في محلها. وفي ظل كل هذه الحيثيات التي تبدو للمنظور النسوي العصري اليوم مانعةً من إقامة بيت هانئ، تجد تلك البيوت ضمّت أُسَرًا سَويّة أنجبت نُجباء الأفراد والذّراري (جمع ذريّة) التي لم يَجُد مَن بَعدهم بمثلهم.

وكذلك ثبت من تاريخ تلك الأزمان وسير رجالها أنهم تعايشوا وتعاملوا مع نسائهم وبناتهم بنفس أحكام الشريعة التي أصّلوا لها وأوصلوها إلينا؛ فلو كان تعرُّض النساء اليوم للظلم في مسألة التزويج المبكر بالذات سببه الخلل في التأصيل الشرعي من حيث صلاحية ولاية الأب للتزويج، لكانت أزمان العلماء الذين أصّلوا وقعّدوا أولى الأزمان بظهور تلك الآفات فيها، وأحوالهم أول النماذج التطبيقية لصور الظلم هذه. ولا يعني ذلك عصمتهم من الزلل والخطأ، أو انعدام وقوع حالات الطلاق أو الخلافات الزوجية أو الشدّة الأبوية عندهم.. بل وقعت وأُثبتت حيث وُجدت منذ عهد المصطفى عليه الصلاة والسلام (ومنها هذا الحديث محلّ الكلام)، لكنها عُولجت بالشرع ولم تُتخذ حُجّة للتبرؤ منه أو التمرُّد عليه من جهة، ثم من جهة أخرى لم تكن ظواهر مجتمعية على مستوى العموم، ولم تكن غالبة على طبائع المعاملات آنذاك، وهذا وحده يدعو للنظر فيما استجد فينا نحن حتى كثر فينا الفساد مع كون الأحكام هي هي.

بالإضافة إلى أن هذه الأخطاء في الممارسات -التي لا تخلو منها طبيعة ولا ممارسة بشرية- لا تقارن بالكوارث والمصائب التي خلفتها الأفكار النسوية و«التحررية» في العلاقات الأسرية وبين الجنسين!

هذا الاستقراء يدل على أنَّ الإشكال الناشئ لاحقًا بخصوص مبدأ التزويج لا يستقيم أن يكون في المبدأ ذاته، فلو كانت العلّة فيه لاعتلّت الأجيال التي مارسته منذ القدم على مدى قرون! وإنما نشأ ما نشأ من مشكلات بسبب ما طرأ من وجوه خلل في الأطراف الممارسة له.

مسألة انفراد المرأة بالرأي والاختيار للزوج، والتصور الرومانسي للتعارف العِشْقي بالتصوير النسوي أو الغربي ليس هو الواقع المثالي ولا الخط العام الذي تسير عليه البشرية، وليس هو الأصلح لها، ولا ترغب غالب الفتيات فيه؛ فغاية ما يهم الأطراف انطباق شروط الكفاءة الشرعية وارتضاء بعضهم البعض بالقدر الذي يُعِين على تحقُّق مقاصد الزواج والعِشرة الطيبة

مشكلة الظلم في الولاية:

مما يؤسف له أن الواقع اليوم ينطق عن شواهد وحوداث تجعل ولاية بعض الآباء على أهليهم تضرّ بدل أن تنفع، وتؤذي بدل أن تحمي، وتجلب السوء بدل أن تدفعه! والحقُّ أنَّ مثل هذا يُقال حتى في ولاية الأم وربابتها في بيتها، وهذا جزء من مشكلة الفساد والانحراف في كافة فئات المجتمعات، والحاصل هنا أنه إذا لم يكن فضل الأمهات يَسْقُط عن مجموعهن بإساءة الأفراد منهن، كذلك لا وجاهة للدعوة بإسقاط الولاية عن مجموع الآباء بسبب إساءة الأفراد، وأن التعامل مع هذه الأخطاء يكون بالتعليم والتوعية لا الإنكار والإلغاء.

وعلى ذلك، لا خلاف في أن الوليّ الظالم بتعدّيه حدود الله تعالى مُؤاخَذ شرعًا على ظُلمه في ولايته، سواء بـــ:

» استغلال سلطانه في خلاف ما استُؤمِن عليه: كإيقاع الضرر عمدًا، أو الامتناع عن دفعه تهاونًا، أو تفويت مصلحة ظاهرة عنادًا، أو غير ذلك من تصرّفات بمحض الهوى، بالتعريفات الشرعية لكلٍّ.

» تعدّي حدود سلطانه المُخوّل له شرعًا: فالجد غير الأب غير الأخ غير من يليهم في صلاحية وحدود ومسؤوليات الولاية.

وفي الحديث المتّفق عليه: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)[1]، فهو ظلمةٌ يوم القيامة بما يحجُبُ صاحبَه عن نور الله تعالى ورضاه يوم الحساب، وهو كذلك ظلمات في الدنيا بما يضيّق صدر الظالم ويكدِّر نفسه وصَفْوَ باله، ويمحق أثر البركة في حياته ... إلى غير ذلك من مظاهر الظلمات التي شرحها أهل العلم.

وقد جعل الشارع لكل مسلم مخارجَ شرعيةً من الظلم الواقع عليه، بحسب حيثيات السياق وعوامل أخرى مبيّنة في مواضعها؛ فللمرأة نصيبُها من الحلول الشرعية عند تعرُّضها للظلم من قائم عليها بخلاف أمر الله تعالى فيها، من ذلك مثلاً:

١. الحلول الشرعية بالموعظة والتذكير والتخويف من الظلم وعاقبته... إلخ.

٢. الحلول الاجتماعية باللجوء إلى المعارف والوجهاء لثني الأب عن ظلمه أو قراره غير الصائب.

٣. اللجوء للقضاء أو السلطات، كما جاء في الحديث السابق والذي طلبت فيه الفتاة ردّ الزواج لأنه لم يراع مصلحتها.

(١) أخرجه بتمامه مسلم (٢٥٧٨)، وأخرج البخاري منه (٢٤٤٧): (الظلم ظلمات يوم القيامة).

٤. عَرَضَ أهلُ العلم لمسألة إسقاط ولاية التزويج بالكلية عن الأب الذي ثبت أنه عاضل لابنته(١) وتنتقل لمن يليه من الأولياء أو للقاضي أو من يقوم مقامَه في أهل منطقتها، وتفاصيلها مبسوطة في كتب الفقه.

ومن المخارج الشرعية المعتبرة في التعامُل مع الوالدين المسيئين إجمالاً: استحضار أنَّ الله تعالى محاسبهما ومجازيهما على الإحسان والإساءة؛ وأنه ليس للأبناء صلاحية المجازاة تلك شرعًا، وإنما عليهم التصبّر ودوام الطاعة في المعروف دون تضرر، بالتعريف الشرعي للطاعة والمعروف والضرر.

الصبر والدعاء بالفرج عامة في ذاتهما حل مُعتبر لا شك لكل كرب، وقد يضاف لهما حلول أخرى لمن وجدها، أو يقومان بنفسيهما لمن عَدِمَها؛ وليسا مُخدّرًا عبثيًّا أو هروبية مذمومة، إذ لا مفرّ مما لا بُدّ منه إلا بالتعايش معه على طريقة، ولا يملك المرء أن يتبرأ من والديه ولا أن يتملّص من درجة ارتباط بهما ما عاشا

ختامًا:

في معمعة الخطاب النسوي وغيره من الخطابات التي تخلط المسائل والملفات لتنتهي دائمًا إلى لوم الشريعة أو «رجالها»، لا بد أن ينتبه المسلم إلى أنه لا وجاهة لأي ربط بين الأحكام الشرعية

(١) قال ابن قدامة: «ومعنى العضل: منع المرأة من التزويج بكفئها إذا طلبت ذلك، ورغب كل واحد منهما فى صاحبه...، فإن رغبت في كفء بعينه، وأراد تزويجها لغيره من أكفائها، وامتنع من تزويجها من الذي أرادته، كان عاضلًا لها» المغني، لابن قدامة (٣٨٣/٩-٣٨٤).

وإيقاع الضرر من أي وجه؛ لأن الشريعة شُرِّعَتْ أصلاً بين الناس جلبًا للمصالح ودفعًا للمضارّ، بالتعريف الشرعي للمصلحة والضرر، وعلى هذا الأساس كان بُنيان التصور الشرعي كله، وعمل العلماء فيه بالاجتهاد والتأصيل؛ فهم ليسوا بأنفسهم المشرِّعين ابتداء، وإنما هم أهل العلم بالشرع تأصيلاً وتقعيدًا وبيانًا، وبينهما فرق.

بالتالي فأي ظاهرة فساد تنتشر، وأي ضرر يقع على أي أحد في أية علاقة فمرده ليس إلى التزام الشرع على تقادم أصوله في مقابل تجدد الأزمان، بل مرده إلى مخالفة التصور الشرعي المتكامل بدرجة ما أو شكل ما، بدءًا من الفهم الخاطئ والمـــنقوص والتبعيضي، مرورًا بالتوقّعات الواهمة والرؤى الدرامية للوجود، وانتهاء بالممارسات التي لا تراعي في الله إلا ولا ذِمَّة.

وأول الإصلاح الحقيقي في هذه المسألة يبدأ من الكفّ عن شيطنة مبدأ «التزويج» في حد ذاته، الذي يُصوِّر أيَّ زواج يتمُّ بغير أن تكون المرأة بدأته من تلقاء نفسها وبمحض اختيارها وكامل هواها، ومرَّت فيه بمراحل العلاقة النمطية بالمعايير العالمية، أنه زواج مَشين مَعيب قهريٌّ سادي! فثمَّة تصوّر متكاملٌ للزيجة المعتبرة شرعًا، إذا استقرَّت أركانه كانت الزيجة شرعيةً مشروعة، ومؤهّلةً لأن تكون طيبةً هانئة، ولو خالفت أيَّ تصوُّرٍ دراميٍّ أو غيرِ شرعيٍّ ابتداءً.

تأصيل

علم المعاني.. وأهميته لتفسير القرآن

د. قمر الزمان غزال

دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، محاضر في المركز الثقافي الاسلامي- الكويت

الفهرس

لعلم المعاني صلةٌ كبيرةٌ بإعجاز القرآن الكريم من وجوهٍ عديدة؛ فمن أوجُه إعجاز القرآن الإعجازُ بالنظم، ومن جهةٍ أخرى فعلم المعاني لا يستقيم إلا بمراعاة الأحكام النحوية، وتسعى هذه المقالة إلى تقديم صورةٍ عن علم المعاني وأهميته في فهم وتدبر وتفسير القرآن الكريم

لو سألنا أي مسلم لسلَّم بإعجاز القرآن الكريم، ولكن عن تقليد، أما المطَّلع على علم المعاني فيقف على حقيقة الإعجاز عن علم وتذوق وإحساس ونظر. فليس المهم أن تعرف ما هو أفضل الكلام العربي، ولكنَّ السر أن تعلل لماذا هذا التفضيل؟

ذكر لي أحد الأساتيذ الكبار في البلاغة العربية، فقال: نحن ندرس علم المعاني تقعيدًا وتقريرًا، أما التطبيقات والأمثلة الحية والممارسة والمعايشة فهي في كتب المفسِّرين مستنبطة ومستخرجة من كتاب الله المعجِز، فهناك ميدان التذوُّق والتطبيق الحق لهذا العلم، فكتبُ تفسير القرآن هي الميدان العملي لعلم المعاني.

فما هو علم المعاني؟ وما أهميته؟ وكيف أطبق هذا العلم على كتاب الله لأقف على شيء من إعجاز ذلك المَعين الذى لا ينضب، والذي مازال غضًا طريًا لا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، معجزًا للفصحاء، مفحمًا للبلغاء؟

تعريف علم المعاني وموضوعه:

هو علم يُعرَف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال. وموضوع علم المعاني هو اللفظ العربي من حيث إفادته المعنى، الذي هو الغرض المقصود للمتكلم، فيجعل الكلام مشتملاً تلك اللطائف والخصوصيات التي يطابق بها مقتضى الحال، ويدور هذا العلم حول تحليل الجملة المفيدة إلى عناصرها، والبحث في أحوال كل عنصر منها في اللسان

العربي، ومواقع ذكره وحذفه، وتقديمه وتأخيره، ومواقع التعريف والتنكير، والإطلاق والتقييد، والتأكيد وعدمه، ومواقع القصر وعدمه، وحول اقتران الجمل المفيدة ببعضها بعطف أو بغير عطف، ومواقع كل منها ومقتضياته، وحول كون الجملة مساوية في ألفاظها لمعناها أو أقل منه، أو زائدًا عليه، ونحو ذلك[1]. ولأن الله تعالى الأعلم بالحال ومقتضاها فجاء كلامه يطابق هذه الحال تمامًا، ومن هنا كان القرآن الكريم أعظم البلاغة.

نشأة علم المعاني:

لقد نشأ هذا العلم غضًّا يانعًا، موصول الأسباب بإعجاز القرآن الكريم، إذ تقرَّر عند فريق من العلماء أنَّ القرآن مُعجزٌ بنظمه، فمضوا يبحثون عن سرِّ هذا النظم المعجز، إلى أن قيض الله لهذا الأمر عالمًا نحويًا كبيرًا، استطاع بذوقه الأدبي الرفيع وثقافته النحوية العريضة أن يَدمج بين النحو والبيان، ويخرج بنظرية النظم لمباحث علم المعاني، وهو عبد القاهر الجرجاني رحمه الله، وذلك في سِفره العظيم: دلائل الإعجاز، بيد أنَّه لم يكن يُسميها بعلم المعاني، إنَّما يُطلق عليها أحيانًا علم البيان أو النظم، وأحيانًا البلاغة أو الفصاحة[2]. وإذا كان الجرجاني أوَّل من درس علم المعاني تذوُّقًا وتعمُّقًا ونُضجًا ولم يسمِّه باسمه، فقد جاء جارُالله الزمخشريّ فطبق نظرية الجرجاني في علم المعاني على القرآن الكريم في تفسيره الكشاف، وسمَّى هذا العمل باسمه علم المعاني، في معرض ذكره لشروط المفسر لكتاب الله، حيث قال: «لا يتصدَّى لسلوك تلك الطرائق، ولا

(*) دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، محاضر في المركز الثقافي الاسلامي- الكويت.

(١) ينظر: البلاغة العربية أسسها علومها وفنونها، لعبدالرحمن حسن حبنكة الميداني (١/١٣٩).

(٢) ينظر: البلاغة تطور وتاريخ، لشوقي ضيف، ص (١٩٠). و: قضية الإعمار القرآني ونشأة علم المعاني، لعثمان هلال عطا الله، ص (٤٤٩).

يغوص على شيء من تلك الحقائق إلا رجلٌ قديرٌ في عِلمين مختصَّين بالقرآن وهما علم المعاني، وعلم البيان»[١].

وهذه هي المرة الأولى في التاريخ البلاغي التي تُدرج مسائل علم المعاني التي اصطلح البلاغيون عليها تحت هذا الاسم. وكان هذا العلم مجنونًا –مشتتًا– حتى عقَّله –رتَّبه– السكّاكي، حيث تم تثبيت هذا المصطلح نظريًا في كتاب مفتاح العلوم للسكّاكي، وذلك في القسم الثالث منه، فجعله للمعاني والبيان، وأوضح لعلم المعاني قواعد وحدودًا، وميَّز له أصولاً وفروعًا، وفَصَل بين علم المعاني وعلم النحو[٢]. وكان هذا الكتاب محورًا للدراسات البلاغية فيما بعد، حيث توالت شروحه، وشروح الشروح، والهوامش والتعليقات والإضافات عليه. وأصبحت كتب البلاغة تدور حوله، حتى قال القائل: «لولا الأعرجان لضاعت بلاغة القرآن»[٣] يقصدون الزمخشري والسكّاكي لأنَّ كلاهما أعرج، فمصطلح علم المعاني ومفهومه أوَّل من تذوقه وشق طريقه وأنضجه وبيَّنه وأسسه مفهومًا واصطلاحًا: الجرجاني، وأول من سمَّاه وطبقه في تفسيره: الزمخشريّ، وأول من فنّنه –جعله فنًّا متكاملاً– وعرَّفه وحد حدوده نظريًا: السكّاكي.

فمن رام الإلمام ببلاغة المتقدِّمين فعليه بكتابَي الجُرجاني (دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة)، ومن أراد أن يُلِمَّ ببلاغة المتأخرين فعليه بكتابَي (المطوَّل، والمختصر للتفتازاني والشروح التي وُضعت عليهما) ويحسن البدء بكتب المتأخِّرين، ثم العكوف على كتب المتقدِّمين.

---

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، للزمخشري، (١٧/١).

(٢) مفتاح العلوم، للسكّاكى (١٩٨/١).

(٣) هذه العبارة وإن جرت مجرى الإشادة بعمل الزمخشري والسكاكي، إلا أنها تخالف مبدأ تكفُّل الله بحفظ القرآن، فالإعجاز القرآني محفوظ لا يضيع، والعلماء ما هم إلا أسباب لإظهار وجوه هذا الإعجاز، ولو لم يأتِ الأعرجان لقيض الله غيرهما من العلماء.

> قيَّض الله لعلم المعاني عالمًا استطاع بذوقه الأدبي الرفيع وثقافته اللغوية العريضة أن يَمزج بين النحو والبيان، ويخرج بنظرية النظم لمباحث علم المعاني، وهو عبد القاهر الجرجاني رحمه الله، وذلك في سِفره العظيم: دلائل الإعجاز

ومنهج العلماء في عرض مسائل علم المعاني ينقسم لمدرستين:

١. المدرسة الأدبية الذوقية، وهي مدرسة عبد القاهر الجرجاني ومن نهج نهجه، فعقدوا للتقديم والتأخير بابًا، وبابًا للذكر والحذف، وبابًا للتعريف والتنكير، وكانوا يُكثرون من ذكر الأمثلة والنصوص ويتذوَّقونها.

٢. والمدرسة التقريرية التقعيدية، ورُوَّادها البلاغيون المتأخِّرون من أصحاب التعاريف والقوالب، وأصحاب هذه المدرسة يعرضون مسائل علم البيان في ثمانية أبواب: الإسناد الخبري والمسند إليه، ويحتوي مسائل التعريف والتنكير، والذكر والحذف، والتقديم والتأخير، والمسند، والإنشاء، ومتعلقات الفعل؛ ويقصدون به تقديم المفعول والظرف، والقصر، والوصل والفصل، والمساواة والإطناب والإيجاز.

علاقة علم المعاني بعلم النحو:

هذا العلم قائمٌ على علم النحو، ويمثل مرحلةً متقدمةً عنه، فعلم المعاني لا يستقيم إلا بمراعاة الأحكام النحوية، فهما يمثِّلان مستويين من مستويات النظام اللغوي، وهناك قدرٌ مشترك بين العِلمين، ومعالم التلاقي بين العلمين كثيرة، فبعلم النحو يتحقَّق فهم البنية التركيبية، وبعلم المعاني تتحدَّد أهداف التعبير والتواصل، فلا يمكن فهم وتطبيق علم المعاني بدون

النحو، فهو الجذر والساق، وعلم المعاني الثمار والأوراق، لذا من خسر علم النحو خسر علوم العربية وخسر علوم الشريعة.

أهمية علم المعاني في الوقوف على إعجاز القرآن الكريم:

ذكر عبد القاهر الجرجاني في دلائل الإعجاز أهمية هذا العلم، فقال:

«ثم إنَّك لا ترى علمًا هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعًا، وأحلى جنىً، وأعذب وِردًا، وأكرم نتاجًا، وأنور سراجًا من علم البيان -يقصد علم المَعاني- الذي لولاه لم تر لسانًا يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدر، وينفث السحر، ويقري الشهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر... إلى فوائد لا يدركها الإحصاء، ومحاسن لا يحصرها الاستقصاء»[(١)].

فأهميته تنبع من الوقوف على أسرار البلاغة في منثور الكلام ومنظومه، فنحتذي حذوهما وننسج على منوالهما، ونعرف السر في افتخار النبي ﷺ بقوله: (أوتيت جوامع الكلام)[(٢)].

وكذلك معرفة وجه إعجاز القرآن من وجهة ما خصه الله به من حُسن التأليف، وبراعة التركيب، وما اشتمل عليه من عذوبة وجزالة وسهولة وسلاسة، فننتفع ببلاغته، وندرك السر في فصاحته، وكيف كان معجزةً خالدةً على وجه الدهر.

وتظهر أهمية علم المعاني ضمن فنون علم البلاغة، بأنّه شرط من شروط من يتصدَّى لكتاب الله مفسرًا، لذا قال الزركشي: «وهذا العلم (المعاني) أعظم أركان المفسِّر، فإنَّه لا بدَّ من مراعاة ما يقتضيه الإعجاز من الحقيقة والمجاز وتأليف النظم، وأن

---

(١) دلائل الإعجاز، للجرجاني، ص (١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣) واللفظ له.

يُوَاخي بين الموارد، ويعتمد على ما سيق له الكلام حتى لا يتنافر، وغير ذلك»[١]. ونصَّ على ذلك السيوطي في الإتقان[٢].

فمعرفة هذا العلم بدقائقه وفروعه هو عُمدة التفسير، وهو واسطة عقد البلاغة، وقاعدة الفصاحة.

ونستطيع أن نُجمل أهمية علم المعاني في نواحٍ ثلاثٍ:

- الأولى: الوقوف على إعجاز القرآن الكريم، من حيث ما خصهُ الله به من جودة النظم، وبراعة التراكيب، وحسن الوصف، وجزالة الكلمات.
- الثانية: القدرة على التفريق بين جيد الكلام ورديئه، وبين البيان العالي والكلام الذي هو أشبه بصوت الحيوانات.
- الثالثة: القدرة على تأدية المعنى بوجه سليم دقيق بعيدًا عن الخطأ والزلل، فبهذا العلم يُعرف السبب الذي يدعو إلى التنكير والتعريف، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، والإطناب والإيجاز والمساواة، والقصر، والفصل والوصل، فيأتي الكلام مطابقًا لمقتضى الحال.

«لا ترى علمًا هو أرسخ أصلاً، وأبسق فرعًا، وأحلى جنى، وأعذب وردًا، وأكرم نتاجًا، وأنور سراجًا، من علم البيان (علم المعاني)، الذي لولاه لم تر لسانًا يحوك الوشي، ويصوغ الحلي، ويلفظ الدُّر وينفث السحر، ويقري الشهد، ويريك بدائع من الزهر، ويجنيك الحلو اليانع من الثمر»

عبد القاهر الجرجاني

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (٣٨٧/١).
(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٣١١/٤).

وبعد أن تعرَّفنا على علم المعاني ومنهج العلماء في تناوُله وأهميته، لابدَّ من أن نعرض بعض تطبيقاته على كتاب الله حتى نتذوَّق بأنفسنا شيئًا من سر إعجاز القرآن الكريم الذي أوحاه الله روحًا من أمره، ومعجزة لنبيه.

أمثلة على تطبيقات علم المعاني في كتاب الله سبحانه:

أنواع الخبر:

بحث البلاغيون أضرب الخبر من حيث التوكيد وخلافه، فإذا كان المخاطب خالي الذهن من الحكم بأحد طرفي الخبر على الآخر استغنى عن مؤكدات الحكم، يقول الخطيب القزويني: «وينبغي أن يُقتصر من التركيب على قدر الحاجة، فإن كان خالي الذهن من الحكم والتردد فيه استغنى عن المؤكدات، وإن كان مترددًا فيه طالبًا حَسُنَ تقويته بمؤكد، وإن كان منكرًا وجب تأكيده بحسب الإنكار... ويسمى الضرب الأول ابتدائيًا، والثاني طلبيًا، والثالث إنكاريًا»[1].

جاء عن المَبَرِّد: قولك: عبدُالله قائم إخبار عن قيامه، وإن عبدَالله قائم جواب سائل عن قيامه، وإن عبدَالله لقائم جواب منكر لقيامه. فهنا المتكلم المخبر كالطبيب الذي يعطي المريض الدواء المناسب بالكمية المناسبة[2].

فبعد أن تعرفت على أضرُب الخبر فما سرُّ تبايُن الآيتين في قوله تعالى:

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٤-١٦]

(١) تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، مطبوع مع شرحه للتفتازاني، ص (٤٤-٤٥).
(٢) نسبه الجرجاني إلى المبرد في دلائل الإعجاز، ص (٣١٥). وكذلك السكاكي في مفتاح العلوم، (١٧١/٣).

لماذا جاءت الآية الأولى بدون لام التوكيد في قوله (مُرْسَلُونَ) ولماذا جاءت الآية الثانية مع لام التوكيد في قوله (لَمُرْسَلُونَ).

يقول أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط: وجاء أولاً (مُرْسَلُونَ) بغير لام لأنه ابتداء إخبار، فلا يحتاج إلى توكيد بعد المحاورة. (لَمُرْسَلُونَ) بلام التوكيد لأنه جواب عن إنكار، وهؤلاء أمة أنكرت النبوات بقولها: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يس: ١٥][1].

ففي الآية الأولى ابتداء إخبار فلا يحتاج لمؤكد، وفي الآية الثانية جواب عن إنكار وذلك لأنهم كذبوهم لذا أكدت بثلاثة مؤكدات على حسب حالة تكذيبهم، وهي تقديم (إِلَيكُم) على (لَمُرْسَلُونَ)، وباسمية الجملة، وبدخول لام التوكيد على الخبر (مُرْسَلُونَ).

الوصل والفصل:

وفي الوصل والفصل في كتاب الله، يُنبه الزمخشريّ إلى ظاهرة أسلوبية دقيقة في نظم القرآن، فيُنبِّه إلى الجملة التي تأتي في نسق مفصولةً عما قبلها من جمل، وتأتي في نَسَق آخر وقد وُصلَت بما قبلها، وذلك لأن المعنى قد لا يتَّسق إلاَّ بالوصل، أو لا يتَّسق إلا بالفصل، فما الفصل والوصل إلا وسيلة فنية لتحقيق أهداف المعنى المقصود.

ففي سورة الحج ترد جملة: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ [الحج: ٣٤] موصولة بالواو في بدايتها، ثم تمضي ثلاث وثلاثون آية وتأتي نفس الجملة وهي مفصولة بدون واو في بدايتها، قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا﴾ [الحج: ٦٧]، يتساءل الزمخشريّ: لِمَ جاءت نظيرة هذه الآية معطوفة بالواو وقد نزعت عن هذه؟ فيجيب: «لأن تلك وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي

(١) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (٥٤٦/٣).

الواردة في أمر النسائك فعطفت على أخواتها، وأما هذه فواقعة مع أباعد عن معناها فلم تجد معطفًا»[1].

التعريف والتنكير:

وفي التعريف والتنكير وارتباطهما بالأسرار البلاغية في المقام والسياق الذي تردان فيهما، حيث يرتبط ذكر المعرفة والنكرة في السياق بحسب ما يقتضيه المقام من إفادة المخاطب.

ففي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، ذكر (إذا) مع (الحَسَنَة) وتعريفها، وذكر (إِنْ) مع (سَيِّئَة) وتنكيرها: إشارة إلى أنَّ الحسنة مقصودةٌ بالذات وكثيرة الوقوع، والسيئة مقصودة بالتبع وقليلة الوقوع. فهنا أتى بالحسنة معرفة للدلالة على القصد والكثرة، ونكَّر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها. فسياق الآيات يتحدَّث عن آل فرعون، فعندما أراد المولى تعداد نِعَمه عليهم، وصفها بالحسنة معرَّفة لتدل على كثرة نعم الله عليهم، وعندما بيَّن الله ما ابتلاهم به عبَّر بالسيئة منكَّرة للدلالة على القلة في مقابل الكثرة في جنب النعم.

التقديم والتأخير:

أما التقديم والتأخير في كتاب الله فهو أسلوب فني مقصود، فيتعرض ترتيب الجملة العربية لخرق فني يتجاوز الدلالة السطحية إلى دلالة أعمق منها بالتقديم والتأخير.

كما في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]: ففي التقديم والتأخير في الآية أكثر من غرض بلاغي، قدم العبادة على الاستعانة لأنَّ تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة، ولا شبهة في أنَّ العبادة وسيلة إلى طلب المعونة

(١) الكشاف، للزمخشري (٤٤٩/٢).

الضرورية، وقُدم المفعول (إِيّاكَ) على فعله للتعظيم والدلالة على الحصر والتنبيه، وكذلك رعاية توافق رؤوس الآي وجه آخر للتقديم، ويمكن أن تجتمع كل هذه الأغراض البلاغية للتقديم في الآية لأن الأغراض البلاغية تتداخل ولا تتعارض.

وكذلك في هذه الآية التفات من الغيبة للخطاب حيث يقول البيضاوي في ذلك: «ثم إنه لما ذكر الحقيق بالحمد، ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك، أي: يا من هذا شأنه نخصك بالعبادة والاستعانة، ليكون أدل على الاختصاص، وللترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود، فكأن المعلوم صار عيانًا والمعقول مشاهدًا والغيبة حضورًا، بنى أول الكلام على ما هو مبادي حال العارف من الذكر والفكر والتأمل في أسمائه والنظر في آلائه والاستدلال بصنائعه على عظيم شأنه وباهر سلطانه، ثم قفَّى بما هو مُنتهى أمره، وهو أن يخوض في لجَّة الوصول، ويصير من أهل المشاهدة، فيراه عيانًا ويناجيه شفاهًا... ومن عادة العرب التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطًا للسامع، فيعدل من الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم وبالعكس»[1].

الذكر والحذف:

ويعدّ الذكر والحذف من الأساليب البلاغية المهمة في كتاب الله، فهو يعبر عن إيصال الفائدة من الكلام بأبلغ وجه، فأحيانًا الذكر يعبر عن المقصود من الكلام بأوضح صورة، وفي أخرى يكون الحذف أبلغ من الذكر، وهو المعني بالتعبير الفصيح وإيصال المقصود.

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ٩٣]: مفعول (ترى) محذوف دل عليه الظرف

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، للبيضاويّ (١/٢٨-٢٩).

المضاف، والتقدير: ولو ترى الظالمين إذ هم في غمرات الموت، والمقصود من هذا الشرط تهويل هذا الحال، ولذلك حذف جواب (لو) كما هو الشأن في مقام التهويل والتعجيب، حتى تذهب النفس فيها كل مذهب من التهويل والتعجيب.

الإيجاز والإطناب:

والإيجاز والإطناب والمساواة من الأساليب المهمة في البلاغة، وهو شرط من شروطها، فهو يدور حول مناسبة الكلام لمقتضى حال المخاطب، وكل معنى يطوف في خاطر الإنسان وعقله يعبر عنه بإحدى هذه الطرق الثلاثة، ولكن على حسب حال المخاطب ننتقل بين الأساليب الثلاثة.

ورحم الله العلوي صاحب الطراز إذ شبه هذه الأساليب بالثوب للجسد، حيث قال: «اعلم أن الكلام بالإضافة إلى معناه كالقميص بالإضافة إلى قَدِّ مَن هو له، فربما كان على قَدرِ قَدهِ من غير زِيادة ولا نقصان، وهذا هو المساواة، وتارة يكون زائدًا على قَدهِ وهذا هو الإطناب، وربما نقص عن قَدهِ، وهذا هو الإيجاز، فإذن الكلام لا يخلو عن هذه الأنواع الثلاثة»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩]، وهي من الشواهد التي اهتزت لها رؤوس علماء البلاغة والبيان بالاستشهاد بها في باب الإيجاز، كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده، وهذه الآية بلغت وجازة لفظها وكثرة معناها مع دقته واشتماله على الاعتبارات الغريبة إلى أرفع درجات الفصاحة والبلاغة.

وتنافس البلاغيون في إيجاد الفروق البلاغية بين بلاغة وإيجاز هذه الآية القرآنية، وبين قول العرب: القتل أنفى للقتل،

(١) الطراز لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، للعلوي (١٧٦/٣).

فذكر القزويني ثمانيةً فروق بين العبارتين، فيما أوصلها الزركشي إلى عشرين فرقًا من وجوهٍ عدّة.

فعلى وَجازة التعبير القرآني في الآية، إلا أنها حملت معاني عظيمة في الحفاظ على الأنفس والأرواح وأمن المجتمعات.

تلوين الخطاب:

أما تلوين الخطاب فهذا الفن لا يخرج عن كونه تنويعًا وتغييرًا في أساليب الكلام، والانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، أو الانتقال من صيغة صرفية إلى أخرى، أو تصرف بالعبارة، بحيث لا يستمر الكلام على طريقة واحدة.

فعند استقصاء الأساليب التي تلفت الانتباه بالتفنن في القول والتغير من حال إلى حال، أو الخروج عن مقتضى الظاهر، نستطيع أن نعْرف حدّ هذا الأسلوب البديع من أساليب البلاغة، فهو يجمع بين طياته أساليب متنوعة عند اجتماعها وتلاحمها يتكوَّن مصطلح «تلوين الخطاب».

ففي التعبير عن المستقبل بالماضي: تنبيهٌ على تحقق وقوعه، وأن ما هو للوقوع كالواقع، وفائدته أن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد، كان أبلغ وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد وجد وكان، ويغلب ذلك فيما إذا كان مدلول الفعل من الأمور الهائلة المهددة المتوعد بها، فيعدل فيه إلى لفظ الماضي تقريرًا وتحقيقًا لوقوعه(١). كما في قوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]، أي: يبرزون لله يوم القيامة جميعًا، وإنما جيء بلفظ الماضي لتحقق وقوعه، نحو: ونادى أصحابُ الجنة.

(١) ينظر: الإيضاح، للقزويني (٩٦/٢). المثل السائر، لابن الأثير (١٤٩/٢). البرهان، للزركشي (١١٢/٣).

> لا نقول: كلُّ كلمة لها إعجازها؛ فكل حرفٍ له، بل كل حركة فيه، وكل تقديم وتأخير، وكل تعريف وتنكير، وكل ذكر وحذف، وكل وصل وفصل؛ مقصود لغايةٍ وهدف

التعبير عن الماضي بلفظ المضارع أو المستقبل: فائدة هذا الأسلوب أن المستقبل إذا أُخبر به عن الماضي، تبينت من خلال هذا الأسلوب هيئة الفعل، وذلك باستحضار صورته، فيكون السامع كأنه شاهد يشهد الحدث الآن، وليس كذلك الفعل الماضي، وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية، كحال تُستغرب، أو تهم المخاطب، أو غير ذلك. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]، قال ابن عاشور: «حكايتها كأنها مشاهدة لأن المضارع دال على زمن الحال، فاستعماله هنا استعارة تبعية، شبه الماضي بالحال لشهرته ولتكرر الحديث عنه بينهم، فإنهم لحبهم إبراهيم وإجلالهم إياه لا يزالون يذكرون مناقبه وأعظمها بناء الكعبة، فشبه الماضي لذلك بالحال... مما يوجب امتلاء أذهان السامعين بإبراهيم وشؤونه حتى كأنه حاضر بينهم، وكأن أحواله حاضرة مشاهدة»[1].

ضرورة علم المعاني للتفسير:

من أراد تذوُّق علم المعاني في كتاب الله بإحساس مرهف فعليه من التفاسير بثلاثة:

١. الكشاف وهو العمدة، ومعه حاشية الطيبي على الكشاف لأنَّه شرح المغلقات من مسائل الكشاف.

(١) التحرير والتنوير، لابن عاشور (١٠٥/٢).

٢. ثم تفسير المحرر الوجيز لابن عطية حيث كان ابن تيمية يُقدِّمُه على الكشاف؛ ففيه أهم ما في الكشاف مع ترك مواطن الاعتزال.

٣. ثم التفسير الثالث الذي لا غنى لبلاغيٍّ عنه: التحرير والتنوير لابن عاشور الذى تشعر وأنت تقرأ تفسيره بأنه من القرن الخامس الهجري، وهو من المعاصرين.

لأنَّ هؤلاء المفسرين عندما وقفوا مع القرآن لم يقفوا معه كوقوفهم مع كلام الناس، بل وقفوا معه على أنه كلام ربِّ الناس، فلا أقول: كلُّ كلمة لها إعجازها؛ فكلُّ حرفٍ له، بل كلُّ حركةٍ فيه، وكلُّ تقديمٍ وتأخير، وكلُّ تعريفٍ وتنكير، وكلُّ ذِكرٍ وحذف، وكلُّ وصلٍ وفصل مقصود لغايةٍ وهدف، ولو انتزعنا كلمة من سياقها القرآني ثم أُديرت على ألسنة البلاغيين لم يجدوا لها بديلاً يؤدي معناها المقصود، وما استخرجه المفسرون من بلاغة الكتاب العزيز هو غيض من فيض قطرة من بحر الكتاب المعجز.

فأرجو أن أكون قد قدمت صورة متكاملة عن علم المعاني وأهميته في فهم وتدبر وتفسير القرآن الكريم، وأخذت بيد القارئ ليقف بنفسه على شيء من أسرار إعجاز القرآن الكريم من خلال بلاغته، حيث إنَّ علوم البلاغة –وواسطة العقد فيها علم المعاني– من أجلِّ العلوم قدرًا، وأتمّها منزلة، وأكملها علوًا، وأدقها أثرًا، وأرجو أن يكون قد تبين وجه من وجوه الإعجاز في نظم القرآن العظيم، وعلامات شرف العبارة في كلام الله الكريم، ودلائل الهداية في معاني الآي الحكيم، ثم يا عجبي! ممن يتصدَّون لتفسير كتاب الله وهم خِلوٌ من علوم العربية وخصوصًا علم المعاني وباقي علوم البلاغة.

أثر أحداث غزة على المشروع الإسلاميّ

د. عطية عدلان
أكاديمي، رئيس مركز محكمات في إسطنبول

كيف نستفيد من أحداث غزة في الدفع بالمشروع الإسلاميّ إلى الظهور والتميز، وما هي آثار طوفان الأقصى وما تلاه على هذا المشروع؟ إن المقاومة من جنس جهاد الدفع، وهو من أهم مراحل استعادة المشروع الإسلامي، عن هذا الموضوع يتحدث المقال

هل لدينا مشروعٌ لأمتنا؟ هل لدى علماء الإسلام مشروعٌ حضاريٌّ إسلاميٌّ يحقق موعود الله تعالى لهذه الأمة بالتمكين والاستخلاف؟ وما هي ملامح هذا المشروع؟ ما هي منطلقاته وغاياته؟ وما القيم الحاكمة له؟ كيف ستكون مراحله؟ وبماذا نواجه تحديات كل مرحلة؟ وكيف نستفيد من الروافع الممنوحة والفرص المتاحة؟ وكيف نتخطى العقبات والعقابيل؟ ما هي جوانب هذا المشروع وميادينه وخططه واستراتيجياته؟ أسئلة تُعَدُّ الإجابةُ عليها أحدَ أهمّ الواجبات الكبرى في هذا التوقيت الذي يشهد تحولاً كبيرًا، يمهد -إن شاء الله- لنهضة المسلمين وإمساكهم بزمام الحضارة، وتوجيههم لدفتها لتكون حضارةً إنسانيةً إسلاميةً راقية، لكنّ السؤال الذي يطرح نفسه الآن ويلحف في طلب الإجابة هو: كيف نستفيد من أحداث غزة الأخيرة في الدفع بالمشروع الإسلاميّ إلى الظهور والتميز، وما هي آثار طوفان الأقصى وما تلاه على هذا المشروع؟ يجب إن كنّا نحمل هذا الهمّ أنْ نحسن الإجابة وأن نحسن التعاطي العمليّ معها.

طوفان الأقصى وجهاد الدفع:

إذا كان جهاد الدفع واجبًا على الأعيان فينبغي ألا ننسى أنّ المقاومة الفلسطينية تُعَدُّ من جنس جهاد الدفع، الذي لا يُشترط له ما يُشترط لجهاد الطلب والفتح من الاستطاعة التي تبلغ مستوى تَوَقُّع الظفر، وإنّما يشترط لها الإعداد بقدر الاستطاعة،

(*) أكاديمي، رئيس مركز محكمات في إسطنبول.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فالواجب هو الإعداد قدر المستطاع، ولا يصح الانتظار حتى توقع الظَّفَر، لأنّه دفاع عن بيضة الإسلام؛ لذلك لا يُنتظَر -في جهاد الدفع عمومًا كما هو مفصل في كتب أهل العلم إذنُ الإمام ولا إذنُ الوالدين ولا إذنُ الدائن، وتخرج المرأة بغير إذن زوجها والعبد بغير إذن سيده.

وإذا كان العدوّ قد استمكن من بلاد الإسلام فإنّ ردّ عدوانه يستغرق زمنًا ومراحل متتابعة؛ فلا بدّ من تواصل المقاومة وتتابع حلقاتها، إذْ إنّ النتيجة النهائية لها تكون تراكميةً، فإذا تراخت وتباعدت حلقاتُها فإنّ هذا يعطِي العدوّ الفرصةَ لالتقاط أنفاسه واستعادة قواه، بما يترتّب عليه أن تضطرّ المقاومة في كلّ مرحلة لأنْ تبدأ من حيث بدأت سابقًا لا من حيث انتهت، وهذا بالتأكيد ضرر ومفسدة أربى من كلّ ضرر نتوقعه، صحيح أنّ ردّة الفعل كانت عنيفة على أهل غزّة، وقد يترتب عليها تدمير القطاع واستئصال المقاومة، وبرغم هذا التوقّع لم يكن للمقاومة أن تمتنع عن اتخاذ قرارها بالحرب، بذريعة الحفاظ على المكتسبات، فما من مقاومة على مدى التاريخ إلا وطاردتها هواجس وتوقعاتٌ كثيرة وخطيرة؛ فما توقفت ولا توانت، ولو كان الصواب هو التوقّف إلى أن يتحقّق تكافؤ القوى لألقينا في مزبلة التاريخ أمثالَ المختار والمهدي والخطابي وغيرَهم من العظماء الذين خلَّدَ التاريخ ذكراهم.

قد نتفق أو نختلف معهم في حسابات تتعلّق بالخطة والتوقيت ومستوى التوسّع في الهجوم بالحجم الذي جعل العدوّ يتجاوز مرحلة حسابات المكاسب والخسائر إلى مرحلة الصراع الوجودي الذي لم نتجهَّز له، لكنَّ التجربة التاريخية للوقائع العسكرية تؤكّد أنّ المعارك قد تَطْرأ عليها ظروف تخرجها عن

مسارها المرسوم إلى مسار غير متوقّع، وقد يكون فيه الخير الذي لا نعلمه، كما وقع للمؤمنين عندما خرجوا للقاء العير فإذا هم في مواجهة النفير، ونزل القرآن: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، فهل الأمر الذي قضاه الله تعالى ليكون اليوم مفعولاً -شاء من شاء وأبى من أبى- هو التمهيد والتوطيد لزوال الكيان الصهيونيّ؟ بكل تأكيد: أجل؛ بدليل هذه الحالة من الذعر التي أصابت الكيان وأعوانه وأولياءه من الأنظمة الغربية والأنظمة العربية على السواء.

> **التجربة التاريخية للوقائع العسكرية تؤكّد أنّ المعارك قد تَطْرأ عليها ظروف تخرجها عن مسارها المرسوم إلى مسار غير متوقّع، وقد يكون فيه الخير الذي لا نعلمه، كما وقع للمؤمنين عندما خرجوا للقاء العير فإذا هم في مواجهة النفير**

استلهام المقاومة:

وإذَنْ فنحن أمام أنموذج يُحتذى في هذا الجانب الذي يُعَدُّ جزءًا لا ينفصل عن المشروع الإسلاميّ الكبير. إنّ تأخر المقاومة لهذا الاحتلال الغاشم الذي نجح في تحقيق المشروع الصهيوني والصليبيّ بصورة أسرع وأبشع مما لو تولى العدو تحقيقه بنفسه، والذي أسرف في تجريف الموارد البشرية والطبيعية وفي تجفيف منابع الدين والأخلاق، والذي بالغ في قهر الدعاة والعلماء والتضييق عليهم، وفي إفساح المجال للفسّاق والفجرة ليعبثوا بعقول الأجيال وقلوبهم ومشاعرهم؛ إنّ تأخر المقاومة لهذا الاحتلال بذريعة الاستضعاف وعدم القدرة، أو بذلك الزعم الذي كانت تتعاطاه الأجيال كالمخدّر عندما يقال لها إنّنا نعيش

في مرحلة تشبه المرحلة المكية؛ جعله يستمكن ويقوى ويصبح غولاً فظيعًا يهدّد الكلّ ويهلك الحرث والنسل.

صحيح أنّ الأمة بحاجة إلى التربية والتوعية والإحياء، وصحيح كذلك أنّها بغير التربية والدعوة والإحياء لا يتحقق لها النصر على هؤلاء الأعداء، ولكن ليس صحيحًا أنّ المقاومة والدفع يتوقفان ريثما تنتهي مرحلة الدعوة والتربية، وليس صحيحًا أنّنا نعيش مرحلة كالمرحلة المكية، فبرغم أنّها تشبه المرحلة المكية في الاستضعاف وغربة الإسلام، لكنّها تفترق عنها بفروق هائلة يكفي الواحد منها لمنع التشابه التام، فالأمة الإسلامية اليوم -برغم ما أصابها من ضعف وتمزّق- موجودة، ودار الإسلام -برغم ما طرأ عليها من تغيير للأحكام- قائمة، والإسلام -برغم غربته- قد تمّت به النعمةً، وشعائر الدين من أذان وصلاة وجمعة وجماعات وحج وعمرة ونسك وزكوات لا تزال كلّها ظاهرة متواترة؛ فكيف -إذن- نقول بملء أفواهنا إنّنا نعيش حالة تشبه الحالة المكية؟ هذا -لعمر الحق- قياس عليل كليل.

وهذا لا يعني أنّنا نقول بتناسخ المراحل وبقاء المرحلة الأخيرة فقط، فالراجح أنّ المراحل قائمة وغير منسوخة، وعلى الأمّة أن تعمل في كلّ مرحلة تمرّ بها بأحكام المرحلة المشابهة لها في «العهد المثال» عهد النبوة والخلافة الراشدة، لكنّ الاعتراض فقط على القياس غير الصحيح، الذي يُشَبِّه ما نعيشه اليوم بالمرحلة المكية؛ بما يترتب عليه من أحكام، فنكفّ عن المواجهة المسلحة ونؤجل كلَّ عملٍ مقاومٍ إلى أن نتهيأ لمرحلة ما بعد الهجرة! ولو أنّ الأمة الإسلاميةً بالفعل مرّت يومًا من الأيام بمثل المرحلة المكية لساغ لها أن تأخذ بكل أحكامها، لكنّ الواقع أنّ الأمة لم يحدث لها قطّ في الماضي ولا في الحاضر أن عادت سيرتها الأولى حيث كان الإسلام يولد وينمو في مكة، وربما -بل من المؤكّد- أنّ هذا لن يقع، ولا سيما مع وجود الطائفة المنصورة التي لا يخلو زمان من قيامها بأمر الله.

> صحيحٌ أنّ الأمة بحاجة إلى التربية والتوعية والإحياء، وصحيح كذلك أنّها بغير التربية والدعوة والإحياء لا يتحقق لها النصر على هؤلاء الأعداء، ولكن ليس صحيحًا أنّ المقاومة والدفع يتوقفان ريثما تنتهي مرحلة الدعوة والتربية، وليس صحيحًا أنّنا نعيش مرحلة كالمرحلة المكية

الإنجازات الكبرى:

لا أرى الإنجازات الكبرى متمثّلة فيما حقّقته المقاومة من إثخان في العدو ونكاية في الكيان الغاصب، ولا في الأعداد غير المسبوقة من القتلى والجرحى والأسرى في الجانب الإسرائيليّ، ولا في الخسائر الفادحة التي تكبدها العدو في المعدات والآلات الحربية باهظة الثمن التي تحوّلت على أيدي الأبطال إلى كتل من الخردة، لا أرى الإنجازات الكبرى متمثلة في هذه الأمور على الرغم من عظمتها؛ لأنّ هناك إنجازات استحقّت أن تكون هي الأكبر على الإطلاق، فهذا الدويّ الهائل الذي أحدثه طوفان الأقصى وما تلاه من أحداث العدوان الغشوم على المدنيين في غزّة شغل الرأي العالميّ وأشعله بصورة غير مسبوقة كمًّا ونوعًا، والأمر لم يقف عند حدّ التعاطف مع الفلسطينيين المظلومين، بل تجاوزه إلى مستوى النظر إلى غزّة على أنّها مصدر إلهام للبشرية المعذّبة في سجن النظام الدوليّ الظالم، وإلى درجة العزم على إعادة النظر في كل شيء تطرحه الحضارة المعاصرة، كلّ شيء كان بالأمس من المسلّمات في الغرب صار اليوم تحت المجهر لإعادة النظر فيه، وكلّ ما كان يروّجه الغرب عن الإسلام والمسلمين صار اليوم محلّ شك.

إنّه تحوّل كبير ليس في الآراء والمواقف فحسب، ولكن في طريقة التفكير وأسلوب التلقّي، ومن محاسن القدر أنّ هذا جاء وقد أفلست الحضارة المعاصرة عن تقديم جديد للإنسان، وقد أيست البشرية وفقدت الثقة في كلّ ما يقال لها، وصارت في حالة انتظار لجديد يأتيها من جهة تأنس فيها صدق اللهجة وتماسك الخطاب، وهذه فرصتنا في الحقيقة لنخترق الجدار المصمت الكثيف الذي صنعه الإعلام الغربيّ والاستشراق ومراكز الأبحاث المشبوهة، هذه فرصتنا لنبلّغ كلمة الإسلام للناس، وسنجد الفطرة في انتظارنا على الطريق لتكون لنا سندًا وظهيرًا، وقد رأينا فعل الفطرة في الشعوب الغربية التي آثرت أن تقف بجانب الحق: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

مكاسب على مستوى معركة الوعي:

ومن الإنجازات الكبرى: هذه الطفرة التي حدثت في مستوى وعي الشعوب العربية والإسلامية للحقائق التي لا يصحّ أن تكون غائبة أو غائمة، الحقائق التي يعتمد المشروع الإسلاميّ على إبرازها ونشر الوعي بها، لم يعد خافيًا حال الأنظمة العربية غير القادر على مقاومة الاحتلال أو نصرة المستضعفين، عجزًا أو تواطؤًا، وأنهم ليسوا جزءًا من أي مشروع تحرري أو نهضوي قادم.

ومن الإنجازات كذلك استقرار اليقين لدى كافّة المسلمين وكثير من غير المسلمين أنّ النظام الدوليّ ليس سوى مؤسسة «بلطجة» تستخدمها الدول الكبرى لاستعباد الشعوب، ولا علاقة لها بالإنسانية ولا بالإنسان، ومنها كذلك انكشاف الكذب والدجل الذي تمارسه أمريكا وسائر حكومات الغرب، وممارستها للتزوير إضافة إلى ممارستها للإرهاب الحقيقيّ ضدّ بني الإنسان. وكلّ هذه الحقائق التي تتكشّف وتتضح

للناس من أهم الروافع التي يعتمد عليها المشروع الإسلاميّ الكبير، وهذه كلّها إنجازات ضخمة، يضاف إليها إنجاز أكبر، وهو نفض الوهن عن الحالة الإسلامية، وتبديد اليأس والإحباط عن الجيل، وبعث روح الأمل في الشباب، بما يوفّر للعمل الإسلامي طاقات عظيمة للمضي قدمًا في المشروع الإسلامي، وهذه في ظنّي هي الإنجازات الكبرى والانتصارات الحقيقية على المستوى المعنويّ.

مِن المكاسب الكبرى على مستوى معركة الوعي: استقرار اليقين لدى كافّة المسلمين وكثير من غير المسلمين أنّ النظام الدوليّ ليس سوى مؤسسة «بلطجة» تستخدمها الدول الكبرى لاستعباد الشعوب، ولا علاقة لها بالإنسانية ولا بالإنسان

الاقتداء والتأسّي طاقة دافعة:

إننا نرجو أن يكون هؤلاء المجاهدون المرابطون ممن قال الله فيهم: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وممن قال فيهم رسول الله ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صلّ لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة)[1].

إننا ندعو شبابنا إلى أن يستلهموا من أمثال هؤلاء المجاهدين القدوة في العمل والصبر والسلوك، بمثل ذلك يُقام المشروع الإسلاميّ. والله المستعان.

(١) أخرجه مسلم (١٥٦).

قراءة في كتاب: «الصهيونية والحضارة الغربية» للدكتور عبدالوهاب المسيري

د. كريمة دوز

دكتوراه في العقيدة والفكر الإسلامي ومقارنة الأديان، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس- المغرب

رويةٌ جديدةٌ للحركة الصهيونية الاستيطانية تُخالف التصور السائد يقدِّمها الدكتور عبد الوهاب المسيري، حيث يرى أنَّ الحركة الصهيونية ذات جذورٍ غربيةٍ، أُلبست بتفسيرات وديباجات يهودية، حيث عرضَ المؤلِّف من خلال فصول كتابه نماذج فكرية صهيونية أخذت من النماذج الليبرالية والاشتراكية، لتفسير طرحها الاستيطاني؛ وليثبت أنّ فكرها يضرب بجذوره في الفكر الغربي الاستعماري، وقراءة هذ الكتاب تحاول عرض أبرز أفكار، وخلاصة نتائجه.

وصف الكتاب:

تنتظم صفحات الكتاب في مئتين وواحد وستين صفحة، واعتمدنا في قراءته على الطبعة الأولى الصادرة عن دار دَوّن المصرية بتاريخ (١٤٣٩هـ-٢٠١٨م).

لمحة عن الكاتب:

عبدالوهاب المسيري (١٩٣٨ - ٢٠٠٨م): مفكر مصري، يعد –رحمه الله تعالى- من أهم نقاد الحضارة الغربية المادية، غير أن بروزه كان واضحًا في دراسته للصهيونية، التي أخذت جزءًا كبيرًا من انشغالاته الفكرية والسياسية، فكانت موسوعته «اليهود واليهودية والصهيونية» إضافة نوعية أغنت الساحة المعرفية العربية الإسلامية، فملازمته الفكرية العميقة لقراءة هذه الحركة مكنته من بلورة فكره الخاص عن نشأة الأيديولوجية الصهيونية، يقول في رحلته الفكرية: «عرفت الصهيونية، لا من منظور عربي، ولا من منظور توراتي يهودي، وإنما من منظور عالمي كجزء من التشكيل الحضاري الغربي وتاريخ الأفكار في الغرب، بل إنني أزعم أن الإشكالات الفلسفية التي أثارتها الصهيونية بالنسبة لي كانت مثارة في حياتي قبل الاشتباك مع موضوع اليهود واليهودية والصهيونية»[1].

(١) رحلتي الفكرية، لعبد الوهاب المسيري، ص (٣٧١).

ولعلّ كتابه «الصهيونية والحضارة الغربية» يحمل جماع رؤيته لهذه الحركة في صلتها بالحضارة والفكر الغربيين.

بين ثنايا الكتاب:

ينحو د. عبد الوهاب المسيري -رحمه الله- في دراسته للحركة الصهيونية الاستيطانية منحًا يخالف السائد في التصور العربي لهذه الحركة، ويرى أن هناك خللاً في التصنيف والرؤية لها، مردّه إلى خطأ في الافتراضات، فهذه الحركة لا يمكن تفسيرها بـ «أثر رجعي» أي دراستها بالرجوع إلى الكتاب المقدّس كما سلك الكثير من الباحثين، لذلك كانت دراسته -رحمه الله- لها قائمة على التركيب لا الاختزال باعتبارها إفرازًا عضويًا للحضارة الغربية.

فالحركة الصهيونية في الرؤية المسيرية ذات جذور غربية ألبست بتفسيرات وديباجات يهودية، ففكرة العودة إلى فلسطين ليست فكرة يهودية كما يرى الكاتب، وإنّما فكرة نبتت في الأوساط البروتستانتية المتطرّفة ثم الأوساط الاستعمارية المعادية لليهود، والفكر الصهيوني قد تبلورت أطروحاته الأساسية في كتابات صهاينة غير يهود قبل أن يتبنّاه بعض الكتاب من أعضاء الجماعات اليهودية.

وليوضّح تصوّره التفسيري التحليلي للصهيونية باعتبارها ظاهرة استعمارية غربية عرض المؤلف من خلال فصول كتابه لنماذج فكرية صهيونية أخذت من النماذج الليبرالية والاشتراكية أصلًا لتفسير طرحهم الاستيطاني؛ ليثبت في نهاية المطاف أنّ فكرهم يضرب بجذوره في الفكر الغربي الاستعماري.

ولبيان هذه الرؤية وجلاء تصوره نَسَجَ خيوط الكتاب في عشرة فصول:

الفصل الأول: الأصول الغربية للرؤية الصهيونية:

انبرى قلم المسيري في هذا الفصل إلى بيان الجذور الغربية للاستيطان الصهيوني، حيث يرى أنّ الصهيونية إفراز غربي، بل هو أداة للإمبريالية الغربية التى تودّ تفكيك المنطقة، وليس كـ (إسرائيل) أداة لتحقيق المخطط الاستعماري الغربي، لذلك يذهب إلى أنّ الخطوة الأولى لاستيعاب وتحليل الظاهرة الصهيونية هي في وضعها في سياقها التاريخي السليم، باعتبارها ظاهرة استعمارية غربية لا يمكن فهمها إلّا في سياق الاستعمار الاستيطاني منذ نهاية القرن ١٩م وخلال القرن ٢٠م، وليس بالعودة إلى النصوص التوراتية والتلمود.

وفي هذا الفصل يسرد الحياة اليهودية بين الإقطاعية في الغرب وصعود النظام الرأسمالي الذي شكّل تحدّيًا لليهود، فبعد سقوط النظام الإقطاعي لم يعد اليهود بتلك القوّة التجارية التي كانوا عليها من قبل، وبهذا أصبح من الضروري إيجاد موطن يعيش فيه الفائض من اليهود، «الذين يعيشون الآن كطبقة بروليتارية، عالةً على المواطنين الأصليين»، فالنظام الرأسمالي الجديد واجه مشكلة تحديث اليهود أو بالأحرى تكييف اليهود مع المجتمع الجديد.

ولعل أهم طرح في هذا الفصل يدور حول «الاستعمار الاستيطاني الإحلالي» و«الدولة الراعية للغرب»، فالمسيري يصنف الاستعمار عمومًا إلى أربعة أصناف صوّرها في هرم، قاعدتُه الاستعمار الجديد وهو تحكّم القوى العظمى في الشعوب وثرواتها بوضع حكومات عميلة تخدمها، ثم يأتي بعد هذه القاعدة الاستعمار التقليدي بإرسال الجيوش إلى البلاد المستعمَرة، ثم الاستعمار الاستيطاني من خلال وضع جماعات استيطانية داخل الدولة المستَعْمَرة وتسخير السكّان الأصليين للخدمة، ويأتي في رأس الهرم الاستعمار الاستيطاني

علاقة الصهيونية بالحضارة الغربية

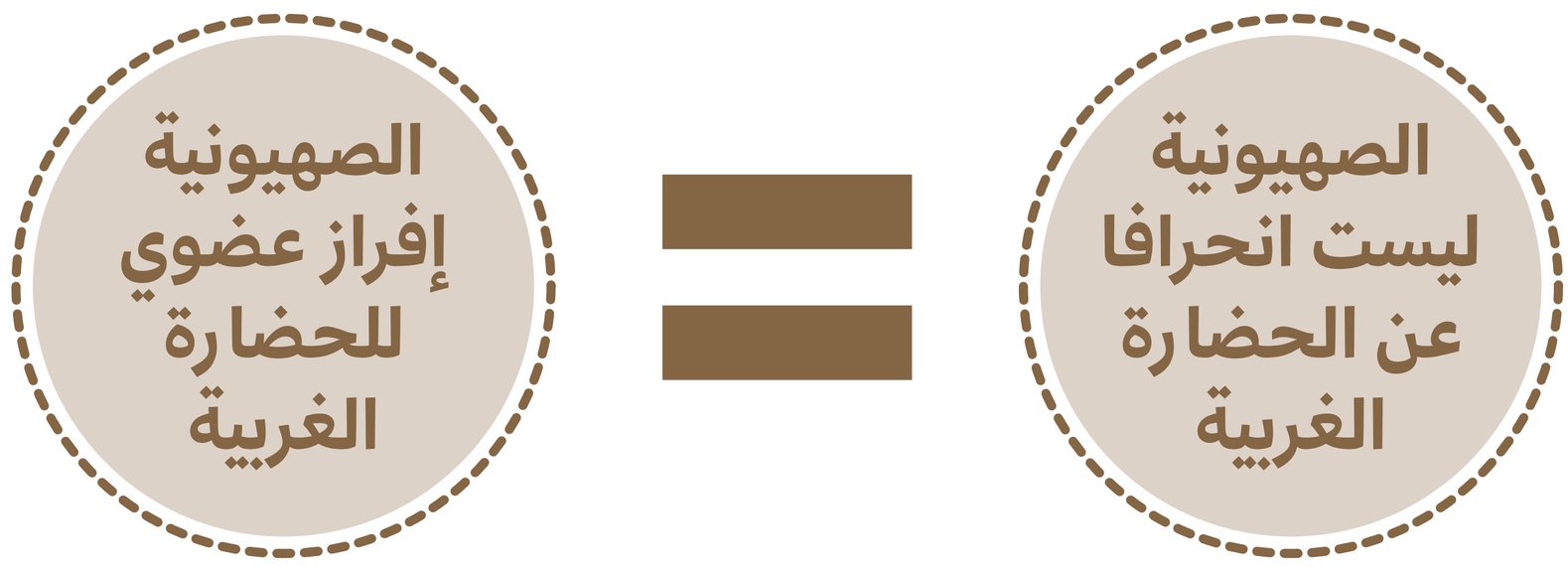

الإحلالي ومثّله عبدالوهاب المسيري بالنموذج الصهيوني، إذ يرى أنّه أشرس استعمار، وهو يعمل على إحلال اليهود مكان الفلسطينيين عن طريق الإبادة والتهجير.

لذلك عدّ المسيري أنّ من أهمّ سمات الاستيطان الصهيوني: الحلولية والعمالة، فلِكَي يحلّ العنصر العضوي اليهودي محلّ الفلسطينيين لابدّ من أن يكون عميلاً لأحد القوى العظمى التي تقوم بحمايته، فهو ليس له دينامية مستقلّة عن الدولة العظمى التي تتبنّاه، واعتبر المؤلف أنّ هذا هو النمط الأساسي الذي يتواتر في الكتابات الصهيونية، وبالتالي فهي إفراز للتشكيل الاستعماري الغربي.

وهكذا خلص في نهاية الفصل إلى اعتبار الصهيونية مشروعًا استيطانيًا إحلاليًا عنصريًا لا يختلف عن المشاريع الاستعمارية الغربية، غير أنّها تبقى ظاهرة فريدة لها خصوصياتها برغم انتمائها إلى نمط التاريخ الغربي، ليضيف إلى تفسيراته فكرة «الدولة الراعية»، حيث ارتأى أنّ الصهيونية لن يتأتّى لها تحقيق مشروعها القومي إلا داخل مشروع استعماري غربي يكون راعيًا لها.

وهكذا خلص في نهاية الفصل إلى اعتبار الصهيونية مشروعًا استيطانيًا إحلاليًا عنصريًا لا يختلف عن المشاريع الاستعمارية الغربية، غير أنّها تبقى ظاهرة فريدة لها خصوصياتها برغم انتمائها إلى نمط التاريخ الغربي، ليضيف إلى تفسيراته فكرة «الدولة الراعية»، حيث ارتأى أنّ الصهيونية لن يتأتّى لها تحقيق مشروعها القومي إلا داخل مشروع استعماري غربي يكون راعيًا لها.

> **الخطوة الأولى لاستيعاب وتحليل الظاهرة الصهيونية هي في وضعها في سياقها التاريخي السليم، باعتبارها ظاهرة استعمارية غربية لا يمكن فهمها إلّا في سياق الاستعمار الاستيطاني منذ نهاية القرن ١٩م وخلال القرن ٢٠م، وليس بالعودة إلى النصوص التوراتية والتلمود**

الفصل الثاني: الصهيونية والرومانسية والنيتشوية:

في هذا الفصل يرى المسيري أنّ هناك أنساقًا فكرية أخرى دخلت في تشكيل التصوّر الصهيوني، ومن أهمّ هذه الأنساق المعرفية كلّ من: الرومانسية(١) والنيتشوية(٢)، فذهب في البداية إلى مقارنة الصهيونية بالرومانسية، ورأى أنّ الداروينية من أهم تبدّيات الفكر الرومانسي، وذهب في تصوّره إلى أنّ «فكرة العودة إلى الطبيعة» تعدّ من أهمّ الأفكار الرومانسية التي أثّرت في الفكر الصهيوني، ويتفرّع عن هذا المبدأ قاعدة «البقاء للأقوى مادّيًا» وليس للأصلح أخلاقيًا، فهذه القاعدة هي المعيار الذي يقاس به الإنسان أخلاقيًا ومعرفيًا، والفكر الصهيوني كما أكّد عبدالوهاب المسيري جاء محمّلًا بهذا التصوّر المادي، فالصهاينة جاؤوا من الغرب مسلّحين بمدفعية أيديولوجية

(١) الرومانسية: وهو مذهب فلسفي ظهر في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ومن خصائص هذا المذهب تعظيمهم للحدس والحرية والتلقائية، يرى عبد الوهاب المسيري أن الفلسفة الداروينية من تبديات الفلسفة الرومانسية باعتبارها تتقاطع مع هذه الأخيرة في نظرتها للعالم؛ فهي فلسفة تطلب العودة للطبيعة باعتبارها معيارًا وحيدًا يقاس به الإنسان ونظمه الأخلاقية والمعرفية، وهذا لب التصور الداروينى للحياة.

(٢) النيتشوية: نسبة إلى نيتشه وهي الفلسفة التي تأخذ من أفكار نيشته أرضية لها وقد اعتبرها المسيري في هذا الكتاب الصورة الانتقائية لأفكاره وهي فلسفة عدمية فردية تعبر عن الحضارة الغربية في أوج الثورة الإمبريالية.

وعسكرية داروينية[1] علمانية، وقاموا بتسوية الأمور برؤية داروينية تعدّ ذبح الفلسطينيين وهدم دورهم والاستيلاء على أراضيهم أمرًا ضروريًا وحتميًّا تحت ذريعة البقاء للأقوى، ثم تأتي «الوحدة العضوية» والتي تعني أنّ الإنسان لا وجود له ولا هوية له خارج تراثه، وبحسب هذه الرؤية يصبح مواطنو أيّ دولة مجرّد تعبير عن روح القومية التي ينتمون إليها، والفكر الصهيوني في التحليل المسيري تفكير عضوي متطرّف، ويتبدّى أثر الرومانسية عندما يؤكد المؤلف أنّ علاقة اليهودي بأرضه تصوّر عضوي، لأنّ اليهودي الذي لا يعيش في أرض الميعاد يعدّ منفيًا، و«العودة» كما صوّرها المسيري هي التي توصل اليهودي إلى درجة الكمال والتكامل العضوي.

ثم ينتقل بعد ذلك لبيان أثر النيتشوية في الفكر الصهيوني حيث يمكن تلخيص هذه الرؤية في النقاط التالية:

ففكرة «السوبرمان» تعادل في التصوّر الصهيوني «الشعب اليهودي» (شعب الله المختار)، فهم أسياد العالم وهدف الوجود الإنساني ولم يخلق بقية البشر إلا ليكونوا سلّمًا لهم للصعود، وهذا الأمر هو الذي يعطي لليهودي حقّ العودة إلى «الأرض المقدسة» متى شاء، ويعمرها أو يخرّبها حسبما تملي عليه مشيئته ومشيئة السوبر أمة.

إذا كانت إرادة القوة تتبدى في السوبرمان النيتشوي فإنّ إرادة القوة تتبدّى في السوبر أمّة وذلك ببقاء الشعب اليهودي وعودته إلى الأرض المقدّسة بقاعدة البقاء للأقوى.

(١) الداروينية: هي فلسفة اجتماعية قائمة على الأسس العلمية للنظرية التطورية التي جاء بها داروين في القرن التاسع عشر ميلادي والتي أثرت في جوانب عديدة من علم الاجتماع وعلم النفس ولقيت البيئة الحاضنة لها في النازية (للتوسع ينظر: المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر، دمشق-سوريا، الطبعة السادسة، (١٤٣٧هـ-٢٠١٦م).

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

فهذه هي أهم النقاط التي يتلاقى فيها الفكر الصهيوني بالفكر الرومانسي وتبدّياته في كلّ من النيتشوية والداروينية، ليزيد تأكيده على تجذّر الفكر الصهيوني في الفكر الغربي واستمداد مقولاته منه.

> **إنّ قضية استرجاع إسرائيل أضحت مطروحة بجدّية في الساحة السياسية بعد صعود الإمبريالية، حيث لم تعد معها الصهيونية فكرة هامشية أو مجرّد أشواق يهودية، فوعد بلفور صدر عن الرؤية الاسترجاعية التي ترى اليهود وسيلة للتعجيل بالخلاص، وهي رؤية تعبّر عن رغبة في التخلّص من اليهود بتحويلهم إلى وسيلة لخدمة الحضارة الغربية، واعتبارهم مادة استيطانية نافعة بيضاء توطّن خارج أوروبا**

الفصل الثالث: الفكر الاسترجاعي:

يذهب المسيري في هذا الفصل إلى أنّ الأيديولوجية الصهيونية نبتت في تربة غير يهودية، ثم تحدّدت معالمها الأساسية في منتصف القرن ١٩م لتتبناها قيادات يهودية في أواخر هذا القرن، والفكر الاسترجاعي فكر ترعرع في الأوساط البروتستانتية وهو عقيدة ترى أنّ الخلاص أو عودة المسيح المخلّص لا تكتمل أركانه إلا بعودة اليهود إلى فلسطين، وبظهور الإمبريالية بدأت تزداد دعاوى الاسترجاع خصوصًا في إنجلترا، ليصبح الخلاص موصولاً بتوطين اليهود في فلسطين، غير أنّ هذه الدعوة ظلّت في حالة سبات ولم تلق استجابة يهودية لافتة إلا في منتصف القرن ١٩م، بعد تفاقم المسألة اليهودية في أوروبا الشرقية.

فهو يرى أنّ قضية استرجاع إسرائيل أضحت مطروحة بجدّية في الساحة السياسية بعد صعود الإمبريالية، حيث لم تعد معها الصهيونية فكرة هامشية أو مجرّد أشواق يهودية رومانسية، ليؤكّد في نهاية الفصل أنّ وعد بلفور يصدر عن الرؤية الاسترجاعية التي ترى اليهود وسيلة للتعجيل بالخلاص، وهي رؤية تعبّر عن رغبة في التخلّص من اليهود بحوسلتهم، أي تحويلهم إلى وسيلة لخدمة الحضارة الغربية، واعتبارهم مادة استيطانية نافعة بيضاء توطّن خارج أوروبا.

الفصل الرابع: الإدراك الغربي لأعضاء الجماعات اليهودية:

يتناول المسيري في هذا الفصل الإدراك الغربي لنفعية اليهود منذ العصور القديمة إلى العصر الحديث، حيث وصف اليهود بمصطلح «الجماعات الوظيفية» ويقصد بها تلك الجماعات البشرية التي يستجلبها المجتمع لتقوم بوظائف يأنف أعضاء المجتمع القيام بها، وليبرز مدى وظيفية اليهود في المجتمعات الغربية يسرد تاريخية وظيفيتهم عبر ثلاث حقب، حيث كان اليهود في الحقبة القديمة جماعات قتالية وأمنية استيطانية، ثم في العصور الوسطى الإقطاعية كانت جماعات وظيفية تجارية، وفي العصر الحديث وظيفية اليهود ستكون موصولة بمفهوم العودة إلى الأرض المقدسة وما ستجلبه هذه العودة من نفع مادي للإنجليز.

وهكذا اعتبر «نفع اليهود» مفهومًا مركزيًّا ومحوريًّا في الحضارة الغربية، لذلك وفي عصر الاستنارة سيدرك الغرب نفعية اليهود وحلّ مسألتهم يكمن في توظيفهم كمادة بشرية نافعة، يتم نقلها إلى الشرق لتصبح عنصرًا استيطانيًا، وبهذا يشكّل الغرب -حسب رؤية المسيري- «دولة وظيفية»، أي دولة يتم توظيفها لصالح الدولة الراعية الإمبريالية.

ثالوث الوحدة العضوية للحلولية اليهودية كما يراه المسيري

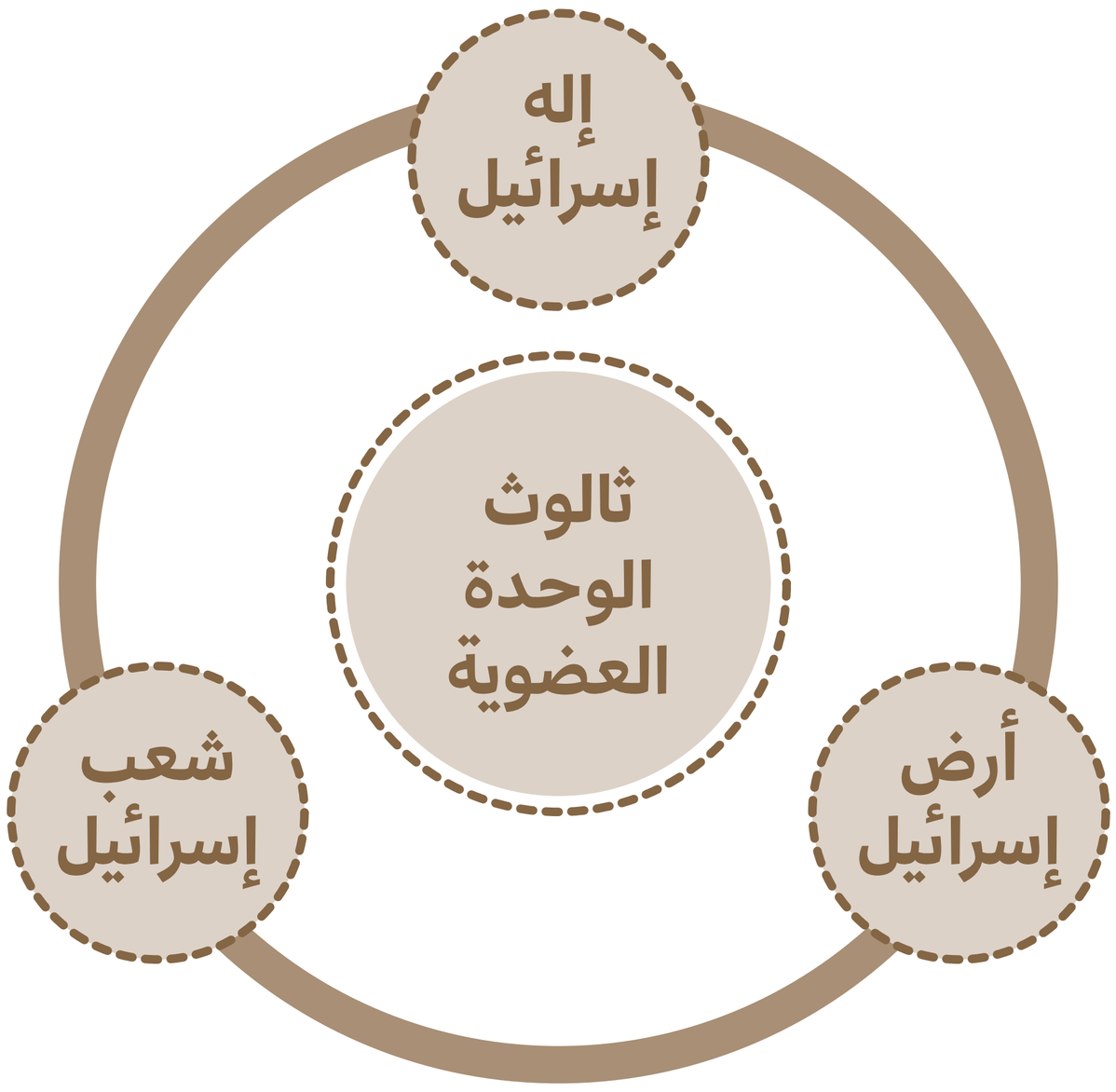

وبناء على نفعية اليهود قسّمت النازية -كما بين المسيري- اليهودَ إلى قسم قابل للترحيل وهم العنصر اليهودي غير المنتج، لذلك يجب ترحيله ليصبح عنصرًا نافعا للحضارة الغربية، وعنصر غير قابل للترحيل وهم أكثر اليهود نفعًا، وبناء على هذا المبدأ النازي تم اعتبار اليهود عنصرًا غريبًا طفيليًا يجب استئصاله من النسيج الأوروبي إما بالقتل أو النقل خارج أوروبا.

وهكذا يخلص المسيري إلى اعتبار الصهيونية قد استمدت رؤيتها العنصرية العرقية من الأيديولوجية النازية، لينتهي في تحليله إلى أنّ قانون العودة لا يمنح امتيازاته إلّا لمن كان يهوديًا أبًا عن جدّ، وبهذا استخدم الصهاينة نفس الأطروحات البيولوجية العنصرية التى روجت لها النازية في تعريف اليهودي داخل (دولة إسرائيل).

الفصل الخامس: الصهيونية بين الجذور الغربية والديباجات اليهودية:

يذهب المسيري من خلال هذا الفصل إلى اعتبار الصهيونية جماعة لا دينية، وحتى تقبل داخل الأوساط اليهودية سيتم أدلجتها وتغليفها بمقولات دينية سيتمّ علمنتها إلى درجة جعلت الجماعات الأرثوذوكسية التي تحارب الصهيونية تنتهي إلى قبولها مرجعًا نهائيًا.

وهنا يطرح مصطلح «الحلولية» كأساس متجذّر في اليهودية، والذي أدّى إلى نجاح الصهيونية، فارتأى أنّ الحلولية اليهودية تدور حول ثلاثية: (الله، الإنسان، الطبيعة)، ففي هذه الثلاثية موقع الحلول والكمون، حيث يحلّ الإله في الإنسان والطبيعة، ويحلّ الإنسان في الشعب اليهودي (الشعب المقدس)، وتحلّ الطبيعة في أرض الميعاد (الأرض المقدسة)، ويمكن ترجمة هذا المبدأ الحلولي وفق ما يمكن تسميته بثالوث «الوحدة العضوية».

وهكذا يتم علمنة المصطلحات الدينية لتتلاءم مع طروحات الصهيونية اللادينية، فالتوراة التي تعتدّ كتابًا مقدّسًا مرسلاً من الإله ستصبح في الصهيونية الملحدة كتاب فلكلور يعبّر عن روح الشعب العضوي، وهذه العلمنة الحلولية حسب تعبير المسيري ليست أمرًا فريدًا وإنّما تتسق تمام الاتساق مع واحد من أهم إنجازات الغرب الفلسفية في العصر الحديث حيث أصبح من الممكن الحديث عن المادّي باسم الروحي والروحي باسم المادّي، فالأرض التي تعني عند اليهودي صهيون الروحية (إسرائيل) التي ترتسم مجازًا في المخيال الروحي لكل يهودي، ستمسي عند الصهيوني الأرض التي يمكنهم متى شاؤوا العودة إليها والاستيلاء عليها بقوة السلاح، والشعب الذي يعني عند اليهودي «الجماعة الدينية» سيضحي عند الصهيوني مجموعة

بشرية لها حقوق مطلقة منفصلة عن المنظومات القيمية الأخلاقية.

وليتضح الإطار العام للصهيونية صكّ المسيري مصطلح «الصهيونية الأساسية الشاملة» و«الصهيونية الأساسية الشاملة المهوّدة»، فالأولى تقوم على صيغة لا دينية ترى في اليهود مادة نافعة لا قداسة لها، فتُعلْمنهم وتحوّلهم إلى مادة نافعة تنقل إلى فلسطين، وهكذا تعمل على علمنة المكان الذي سينقلون إليه ليكون مجرّد حيز لا تاريخ له، وتُعلْمنُ السكّان الأصليين ليكون مصيرهم الإبادة أو النقل، أمّا الصيغة الثانية المهوّدة فيتم ترشيدها بديباجات ومسوّغات يهودية تجعل هذا التصوّر الصهيوني مقبولاً إلى حدّ كبير في الأوساط اليهودية، وهكذا سيفهم أنّ نقل اليهود ليس للتخلّص منهم أو تأسيس دولة وظيفية تخدم الغرب فحسب، وإنّما هو تأسيس للدولة المقدّسة التي تستجيب للحلم الأزلي في العودة إلى أرض الميعاد وتحقيق رسالة اليهود في تأسيس دولة تستند على الشريعة اليهودية.

يمكن اعتبار الصهيونية بأنها جماعة لا دينية، وحتى تُقبل داخل الأوساط اليهودية سيتم أدلجتها وتغليفها بمقولات دينية، وسيتمّ علمنة المصطلحات الدينية لتتلاءم مع طروحات الصهيونية اللادينية وهكذا أصبحت الصهيونية مقبولة مرجعًا نهائيًا للجميع

الفصل السادس: الجذور الغربية للاعتذاريات الصهيونية ونظرية الحقوق:

ينطلق المسيري كعادته في هذا الكتاب من صياغة مصطلحات خاصة برؤيته للصهيونية وعلاقتها بالفكر الغربى، ويرى أنّ الاعتذاريات هي الحجج التي يسوقها الصهاينة لتبرير أفعالهم العدوانية تجاه الفلسطينيين، وهي اعتذاريات تحاكي مبررات الإمبريالية الغربية في غزوها للشرق واستيطانها للأمريكيتين، فإذا كانت حجج الرجل الغربي الاستعمارية تدور حول مركزيته في الكون، فإن الاحتلال الصهيوني ينطلق في حججه من مقولة «شعب الله المختار» أو ما اصطلح عليه عبد الوهاب المسيريّ «السوبر أمة» التي لها حق الاستيطان، ليصبح الفلسطيني في هذا التصور أمرًا عرضيًّا هامشيًّا.

وهكذا طرحت إسرائيل نفسها باعتبارها دولة وظيفية غربية (بيضاء) نظيفة متقدمة وقاعدة للديمقراطية الغربية التي تحمي المصالح الاستراتيجية الغربية وتقف بحزم صارم ضد القومية العربية قديمًا وضدّ الحركات الإسلامية حديثًا[1]، وفي ظلّ هذه الاعتذارية كما يرى الكاتب لا يمكن للفلسطينيين أن يكون لهم حقوق أقوى أو حتى مساوية لحقوق اليهود.

> ينطلق الاحتلال الصهيوني في حججه من مقولة «شعب الله المختار» الذي له حق الاستيطان، ليصبح الفلسطيني في هذا التصور أمرًا عرضيًّا هامشيًّا

(١) حركة حماس مثلًا كنموذج للمشروع الإسلامي في المنطقة.

الفصل السابع: تيودور هرتزل، الفكر الاستعماري والعباءة الليبرالية:

يذهب المسيري من خلال هذا الفصل إلى تحليل ونقد مقولة ليبيرالية الصهيونية أو ليبيرالية طرح هرتزل، ويرى أنّ تأثير هذه الأيديولوجية كان سطحيًّا؛ لأنّ الجوهر هو الإيمان الصهيوني بأنّ فلسطين أرض بلا شعب، والعنف هو الآلية لتحقيق الرؤية الصهيونية. لذلك عدت بعض الجماعات اليهودية هرتزل مسيحها المخلص أو (ماشيح الصهيونية السياسية) الذي عمل على إخراج الحلم اليهودي بالعودة إلى حيز الواقع والوجود، ودعوى الفكر الليبرالي لم تكن سوى أفكار مجردة بينما الواقع العملي أثبت أن هرتزل كان يتحرّك وفق رؤية ترى العالم يهودًا وأغيارًا، وهي رؤية تتأسس على خارطة إدراك صهيونية، وهذا ما جعل عبدالوهاب المسيري يصف هرتزل بالمخلص الليبيرالي، ويتمظهر الخلاص الليبرالي في إبدال فكرة العودة الشخصية للمسيح وهي فكرة دينية بفكرة الدولة اليهودية التي تحلّ محل المسيح (بالنسبة للصهيونية اللادينية) والتي تمهّد الطريق لعودته بالنسبة (للصهيونية الدينية).

فكانت مهمة هرتزل وغيره من الصهاينة إخراج هذا الحلم الديني إلى حيّز الوجود كفكرة واضحة، إمّا بالعنف أو المناورات السياسية، بجعل الدولة اليهودية قاعدة لقوة إمبريالية كبرى.

الفصل الثامن: الصهيونية الاشتراكية:

يرى المؤلف أنّ دعاة الصهيونية الاشتراكية يدَّعون أنّ الفكر الاشتراكي من المصادر الأساسية لرؤيتهم للواقع، غير أنّ هذه الاشتراكية مفرغة من المضمون الإنساني، وبسوقه لنماذج صهيونية اشتراكية خلصَ إلى أنّ منطقهم منطق استعماري غربي يختبئ وراء الديباجات الاشتراكية، فهم ينتمون إلى

الإمبريالية الاشتراكية التي تؤيّد المشروع الإمبريالي الغربي بدعوى غزو الشرق المتخلّف الذي سيتقدّم بفعل الغزو الغربي، ومن ثمّ الدخول تحت عباءة الاشتراكية.

فالليبرالية والاشتراكية الصهيونية ما هى إلا ديباجات ظاهرية أمام المجتمع الدولي، والتصور الصهيوني في حقيقته جاء خادمًا للإمبريالية الغربية.

> **يذهب المسيري إلى أن جوهر الصهيونية هو الإيمان بأنّ فلسطين أرض بلا شعب، والعنف هو الآلية لتحقيق هذه الرؤية، وأن دعوى الفكر الليبرالي لم تكن سوى أفكار مجردة بينما الواقع العملي أثبت أن هرتزل كان يتحرّك وفق رؤية ترى العالم يهودًا وأغيارًا، وهي رؤية تتأسس على خارطة إدراك صهيونية**

الفصل التاسع: ديفيد بن جوريون، الزعيم والرؤى:

ذهب المؤلف من خلال هذا الفصل إلى أنّ الرؤية الصهيونية قد تجسّدت في فكر ديفيد بن جوريون (١٨٨٦-١٩٧٢م)، فهو الذي أسهم في تحويل الرؤية إلى حقيقة واقعية بكلّ وحشيتها ودمويتها، فهو من أشرف على تكوين رئاسة الحكومة المؤقّتة قبل إعلان الانتداب عام (١٩٤٨م)، فقام بنفسه بإعلان بيان قيام (إسرائيل)، مشيرًا إلى عدم وضع حدود للدولة لأنّها مهمّة الجيش (الإسرائيلي).

فكانت القومية من أهم الأفكار الاشتراكية التي ميّزت كتابات بن جوريون وهي كما ذكر تعبّر عن روح الرؤية الغربية للشعب العضوي المنبوذ الذي عليه أن يخرج من أرض المنفى

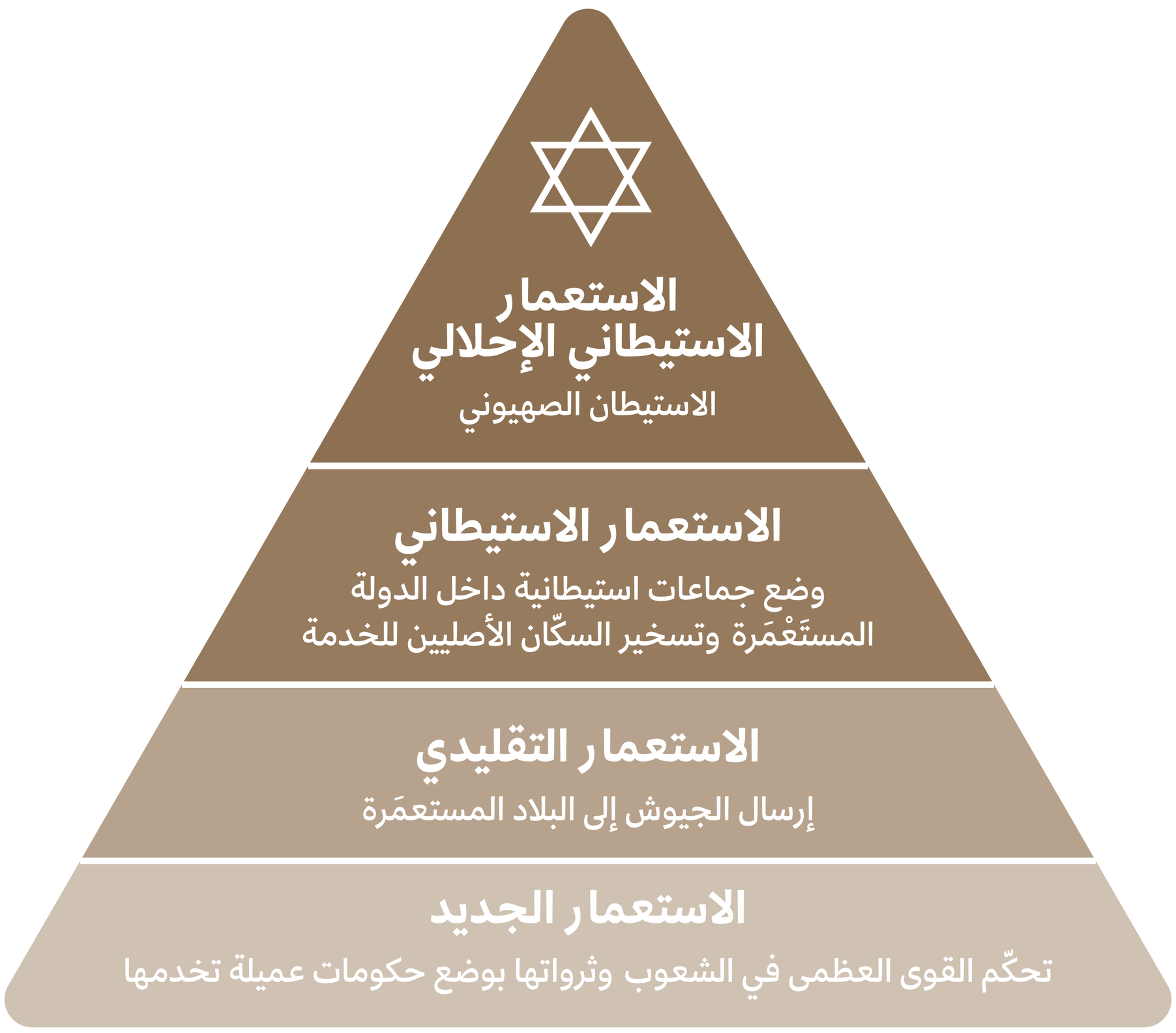

أوروبا ليعود إلى وطنه القومي فلسطين، فكان الاستيطان عنده موصولاً بالسلاح، ليصبح العنف غاية في حدّ ذاته، بل وسيلة لبعث حضاري كما وصفه عبدالوهاب المسيري، ورغم ادّعاء علمانيته إلا أنّه كان مغرقًا في الدين ورؤى تستند إلى مجموعة من الأساطير التي تمت علمنتها، كأسطورة العودة وشعب الله المختار وغيرها، ورغم تنبّئه بأن الدولة الصهيونية ستكون يهودية خالصة تعتمد على قوتها الذاتية، غير أنّ الحقيقة كما يرى عبدالوهاب المسيري غير ذلك؛ إذ أصبحت دويلة عميلة لا يمكن أن يكتب لها البقاء إلا من خلال الدعم السياسي والاقتصادي العسكري الغربي، والأمريكي بالدرجة الأولى[1].

(١) من يتابع الأحداث الحالية والعدوان الإسرائيلي على قطاع غزة يلحظ الدعم الغربي عمومًا والأمريكي المعلن خصوصًا لهذا العدوان.

يقوم الجيبان الاستيطانيان -الغربي في جنوب أفريقيا والآخر في فلسطين- على مبدأ تدبير الفائض البشري الغربي ورعاية المصالح الغربية؛ لذلك عدّت الإمبريالية هذين الجيبين امتدادًا للحضارة الغربية وسط أفريقيا وآسيا، وجزءًا من تاريخها

الفصل العاشر: الجيبان الاستيطانيان في إسرائيل وجنوب أفريقيا:

يذيّل المسيري رؤيته التحليلية للظاهرة الصهيونية بعقد مقارنة بين الجيب الاستيطاني الغربي في جنوب أفريقيا والآخر في فلسطين، وذلك لفهم عمق الصلة بين الفكر الغربي والفكر الصهيوني، فهذان الجيبان الاستيطانيان يقومان على مبدأ تدبير الفائض البشري الغربي ورعاية المصالح الغربية، لذلك عدّت الإمبريالية هذين الجيبين امتدادًا للحضارة الغربية وسط أفريقيا وآسيا، وجزءًا من تاريخها، وإذا كان التقسيم في جنوب أفريقيا يفصل بين البيض والسود فإنّ هذا التقسيم الصهيوني يفصل بين العرب واليهود. وأكّد الكاتب أنّ الرؤية الاستيطانية في كلا الجيبين يتفرّع عنها خطاب عنصري يؤكّد التفاوت بين الوافدين أصحاب الحضارة أو شعب الله المختار والسكان الأصليين المتخلفين في هذا التصوّر.

وهكذا ينتهي إلى تأكيد تجذّر الفكر الصهيوني في الحضارة الغربية فهي منبته ومنشؤه، بل إنّ الفكر الصهيوني قد ترعرع في أوساط معادية لليهود عملت على توظيفهم لخدمة الحضارة الغربية، فكان مفهوم العودة ليس دينيًا خالصًا مأخوذًا من التوراة أو التلمود، بل هي مقولة غربية مادية تم صياغتها بديباجات دينية تستجيب لأشواق اليهودي في بناء دولة دينية تحكمها شريعة التوراة.

خُذِ العَفْو

د. خير الله طالب

حضر مع قريب له مجلس عمر رضي الله عنه، فقال: يا ابنَ الخطابِ، واللهِ ما تُعْطِينَا الجَزْلَ[1]، وما تَحْكُمُ بيننَا بالعَدلِ، فغضب عمر، فقال قريبه: يا أَمِيرَ المُؤمنينَ، إن اللهَ تعالى قال لِنبيِّه ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، وإنَّ هذا مِنَ الجاهلينَ، فواللهِ ما جاوَزَها عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عليه، وكانَ وقَّافًا عندَ كِتابِ اللهِ[2].

الصفح والعفو عن المخطئ خلق معروف تسهل به الحياة، وتجمل به العلاقات، وتختصر به الجهود، ويتعلم به المخطئ. وهو صورة من صور (أخذ العفو) الذي هو مفهوم واسع واقعي عميق، ينسجم مع تفاوت الطباع واختلاف القدرات وتنوع الظروف وتباين الأمزجة، ويحث على قبول المبذول من الآخرين بسهولة، دون كلفة ولا مشقة، مما تطيب به نفوسهم وتسمح به أوضاعهم، وهو يدعو ضمنًا إلى الاستمتاع بالموجود والاكتفاء بالمتاح، والشكر على القليل الذي يأتي بالكثير.

﴿خُذِ العَفْو﴾ آيةٌ «جامعة لحسن الخلق مع الناس، وما ينبغي في معاملتهم، فالذي ينبغي أن يعامل به الناس: أن يأخذ العفو، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد

(١) العطاء الكثير الواسع.
(٢) القصة في البخاري (٧٢٨٦).

الصفحة السابقة | الفهرس | الصفحة التالية

ما قابله به، من قول وفعل جميل أو ما هو دون ذلك، ويتجاوز عن تقصيرهم ويغض طرفه عن نقصهم، ولا يتكبر على الصغير لصغره، ولا ناقص العقل لنقصه، ولا الفقير لفقره، بل يعامل الجميع باللطف والمقابلة بما تقتضيه الحال وتنشرح له صدورهم»[(١)].

يستوعب أخذُ العفو أسباب تمتين العلاقات ونقاوتها، وراحة المشاعر واستقرارها، وقد ورد الأمر بالنهي عن التكلف ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: ٨٦]، وجاء الأمر النبوي للجارة المسلمة: (لا تَحْقِرَنَّ جارَةٌ لِجارَتِها، ولو فِرْسِنَ شاةٍ)[(٢)] وهو ظِلْفُ الشَّاةِ كالحافرِ مِن الفرَسِ، وقيل: هو عَظمٌ قَليلُ اللحم؛ كنايةً عن المبالَغة في تواضُع الهَديَّة. وكانت التربية النبوية تُرغِّب في ترك سؤال الناس، فضلاً عن الإلحاح عليهم، وخاصة سؤال أموالهم إلا فيما وجب، فإن السؤال فيه ذلة للسائل وإحراج للمسؤول قد يدفعه إلى البخل والمنع.

يعين على أخذ العفو: خفض التوقعات من الناس، فإن من لم يتوقع شيئًا سعد منهم بالقليل، ومن توقع منهم الكثير خَفَت في نفسه ما كان أقل مما توقعه، وإن كان كثيرًا. ويعين عليه أيضًا: تعويد النفس على الشكر على كل شيء مما لا يأبه الناس بالشكر عليه، وكذلك امتداح أي خطوة إيجابية أو فعل

(١) تفسير السعدي، ص (٣١٣).
(٢) أخرجه البخاري (٢٥٦٦).

طيب مهما كان ضئيلاً، ومهما كان صاحبه مقصرًا، فإن امتداح القليل يزيده، وإن الشكر على الخطوة الصغيرة يحفز صاحبها على الاستمرار والتحسين والزيادة.

هكذا الإحسان إلى الخلق يفتح قلوبهم لقبول الحق، وهو إحسان يجب ألا يهدر حقًا ولا يضيع واجبًا، لذا جاء بعد الأمر بأخذ العفو الأمر بالعرف، وهو المعروف الذي من قام به ربما تعرض للجهالة، فجاء الأمر بالإعراض عن الجاهلين، وبذا تنتظم علاقات المسلم بثبات مبادئه وقيمه، وحفظ قلبه وعلاقاته. يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «خالط الناس وزايلهم، وعاملهم بما يشتهون، ودينك لا تثلمنه»[1].

وصفةٌ ربانيةٌ للقائمين على أُسَرهم وأعمالهم أن يأخذوا العفوَ ليغنَموا من بعده ببركاتِ القناعةِ والرضا وسلامة الصدر وحسن الظن وراحة البال ودوام التفاؤل وسرعة التفاعل. أما المربون والدعاة فأحوجُ إلى ذلك، ذلك أنَّ سياق الآيات كان في مُحاجَّة المشركين ودعوتهم، فجاء أخذ العفو ليفتح قلوبهم للدعوة، فإنَّ النفوسَ تَهوى السماحة والراحة والبساطة، وتنفِرُ من المشاحّة والتعب والتعقيد.

(١) الزهد لأبي داود (١٦٣)، ونحوه في صحيح البخاري معلقًا: كتاب الأدب، باب: الانبساط إلى الناس.

رواء

ترحب مجلة رواء بمقالاتكم العلمية والفكرية
ضمن المحاور الأساسية للمجلة

ويشترط ألا يزيد حجم المادة المرسلة عن ٣٠٠٠ كلمة، وأن تكون المادة مكتوبة أصالة للمجلة وغير منشورة من قبل، وأن تراعى فيها سياسات النشر في المجلة

كما ترحب المجلة بخواطركم القصيرة ضمن زاوية (بأقلام القراء)

ترسل المقالات والمواد إلى البريد الإلكتروني:
rawaa@islamicsham.org

rawaamagazine

www.rawaamagazine.com